# الباب الأول

## المنهج والبيئة الثقافية والأسلوب والبيئة الثقافية والحضارة الأوروبية

# الفصل الأول

## الموضوع: الطاقة الروحية

١- الموضوع يسبق المنهج.

ويعنى هذا العنوان الطويل "الموضوع والمنهج والأسلوب والبيئة الثقافية والحضارة الأوروبية" الجمع بين المنهج وهو المنهج الحدسى ودراسة الأفكار من جوانبها النفسية كما هو الحال فى علم نفس المعرفة، والموضوع وهو الحياة الوجدانية بكل مظاهرها من تذكر وحلم وخيال. ويعنى الأسلوب الصور الفنية وطرق التشبيه والاستعارة والمثل والتى يستغلها برجسون لتوضيح الفكرة. فالفلسفة الفرنسية منذ ديكارت جزء من تاريخ الأدب الفرنسى. أما البيئة الثقافية فتعنى التيارات الفكرية والنفسية الفلسفية والعلمية التى كانت موجودة فى عصره والتى تفاعل معها كرد فعل عليها. أما الحضارة الأوروبية فتعنى دلالة برجسون داخل الحضارة الأوروبية خاصة والغربية عامة، خاصة وأنه عاصر حربين أوروبيتين، الأولى والثانية، وعاصر بداية المحرقة والاحتلال النازى لفرنسا، وهو اليهودى الفرنسى، ونشأة المنظمات الدولية مثل عصبة الأمم، وارتباطه بديكارت كبداية مما يوحى بأن برجسون كان من علامات النهاية.

وبالرغم من أن المنهج يسبق الموضوع عادة مثل أسبقية مقال فى المنهج تطبيقه فى "التأملات فى الفلسفة الأولى" عند ديكارت "وأفكار موجهة للظاهريات وللفلسفة الظاهراتية" تطبيقه فى "الفلسفة الأولى" و"أزمة العلوم الأوروبية" عند هوسرل، وأسبقية "ظاهريات الروح" و"علم المنطق" عند هيجل تطبيقه فى "محاضرات فى تاريخ الفلسفة" و"محاضرات فى تاريخ الدين"، "محاضرات فلسفة التاريخ" و"محاضرات فى علم الجمال" إلا أن الموضوع يسبق المنهج عند برجسون كما سبق الحدس البرهان. فالموضوع يتشكل فى الوعى أولاً قبل أن يدركه الحدس. والبلبل يغرد دون أن يتعلم فن الغناء. والطفل يمشى قبل أن يتعلم

قواعد المشى.

ويظهر الموضوع فى الطاقة الروحية مع عنوان فرعى "محاولات ومحاضرات". ويشمل سبعة موضوعات.

الوعى والحياة، النفس والبدن، أشباح الأحياء والبحث النفسى، الحلم، تذكر الحاضر والتعرف الخاطىء، الجهد العقلى، المخ والفكر وهم فلسفى[1]. بين (١٩٠١-١٩١٣) وعمرة بين ٤٢-٥٤ عاماً (وأكبرهما "تذكر الحاضر والتعرف الخاطىء، "وأصغرهما "المخ والفكر٢ وهم فلسفى"). ومصطلح الطاقة الروحية جديد. والشائع هو "الدافع الحيوى". ويغلب على الموضوعات السبعة الموضوعات النفسية. وبعضها إعادة عرض سهل لموضوعات تطبيقية فى كتب مستقلة، مثل "المخ والفكر، وهم فلسفى، و"تذكر الحاضر والتعرف الخاطىء و"النفس والبدن" تمت دراستها من قبل فى "المادة والذاكرة" (١٨٩٦) وعنوانه الفرعى، "الصلة بين النفس والبدن" و"الوعى بالحياة" و"أشباح الأحياء والبحث النفسى" موضوعات تم تناولها من قبل فى "التطور الخالق" (١٩٠٧).

وكل موضوع له وحدته الداخلية، أهدافه وحججه وأعلامه. لذلك يُحلل كل

---

(١) وطبقاً لترتيبها الزمانى:

١- الحلم (١٩٠١).

٢- الجهد العقلى (١٩٠٢).

٣-المخ والفكر، وهم فلسفى (١٩٠٤)

٤-تذكر الحاضر والتعرف الخاطىء (١٩٠٨)

٥- الوعى والحياة (١٩١١)

٦- النفس والبدن (١٩١٢)

٧-أشباح الأحياء والبحث النفسى (١٩١٣).

موضوع على حده طولياً وليس عرضياً، بالرغم من وجود عناصر مشتركة بين المقالات فى الهدف والمنهج والتوجيه.

ويغلب على الموضوعات علم النفس الفلسفى أو الفلسفة وأساسها النفسى. وقد كان برجسون فى بداية حياته يريد أن يكون عالم نفس، ولكنه نفر من علم النفس الفيزيقى أى السيكوفيزيقا الذى كان سائداً فى عصره والخارج من معامل علم النفس، وقياس الظواهر النفسية بمظاهرها الجسمية من أجل تأسيس علم النفس الخالص الذى يقوم على الاستبطان واستقلال الظواهر النفسية عن حواملها الجسمية.

**٢- الحلم[١].**

وقد شاع الموضوع منذ أن ركز فرويد دراساته فى التحليل النفسى على "تفسير الأحلام"، معظم الأعلام المذكورة من علماء النفس[٢] ولم يذكر من الفلاسفة إلا أفلاطون وأفلوطين وشوبنهور. وهو موضوع نفسى خالص يشق طريقاً ثالثاً بين التحليل الفزيولوجى والتأمل الميتافيزيقى. ويعتمد برجسون على منهج تحليل الأحلام التى يرويها أصحابها كما فعل فرويد من قبل. فالدارسة

---

(١) محاضرة ألقاها برجسون فى المعهد العام لعلم النفس فى ٢٦/٣/ ١٩٠١.
ES., pp.85-109. رؤى فوسفورية Phosphorénes.

(٢) ألفرد موري A.Mauray (٣)، ماكس سيمون M.Simon، ستيفنسن Stevenson، تارتيني Tartini، الماركيز هرفي سان دينيز(٢)، تيسي Tissi، كراوس، شيرنرScherner، أرتيج Artignaes، أفلاطون، أفلوطين، شوبنهور، لادا G. Ladd، دلوج Deloge، روبير Robert .w، فرويد(١) وفى الهامش روبسبيير، مارا، فوركييه- تينفيل Fouqaeir- Tinville، جولدشيدر Goldscheider- موللر Müller.

تفسير للأحلام وليست للأحلام ذاتها. يشك فى النظريات المسبقة قبل تحليل التجارب "فنترك النظريات ولنأخذ الوقائع".

وقد وقع الفيلسوف شوبنور فى التفسير الفزيولوجى للحلم فى حين ويعنى الحلم رؤية أشياء دون أن تكون موجودة أما العين بالفعل، لا فرق بين حلم النوم وحلم اليقظة، بين الوهم والسرحان دون أن تكون هناك مادة حسية للحواس خاصة البصر والسمع. وقد يتداخل اللمس.

وقد تحدث علماء الفزيولوجيا والسيكوفيزيقا عن "غبار مضىء أو "طيف مرئى" أو "رؤى فوسفورية". وهو ما يتناقض مع غلق الجفنين. قد يثار حلم كبير من واقعة حسية صغيرة مثل حريق كبير من لهب شمعة.

واعتبره أحد الأطباء وهو نيسييه أحد علامات المرض: فالحلم قيمة دلالية.

والحقيقة أن الحواس تغيب أثناء النوم، ثم تنفتح فى بعض الاتجاهات ومجالات العمل. وهكذا يؤلف الموسيقى بسمعه الداخلى وليس بسمعه الخارجى.

والتذكر هو العامل الفعال فى الحلم. لذلك ارتبطت دراسة الحلم بدراسة التذكر كما فعل برجسون من قبل فى "المادة والذاكرة" (١٨٩٦). وهكذا يؤلف الروائى عندما يستدعى ذكرياته السابقة فى حلم اليقظة. التذكر هو القوة الإخبارية للمواد المنقولة بواسطة إرخاء الحس. وهى القوة التى تقلب الموضوعات المحددة والدقيقة الانطباعات الغامضة الآتية من العين والأذن من سطح الجسد وباطنه. ويتم فى حالة اليقظة. هناك انطباعات حسية فعلية على أعضاء الحس وذكريات تتداعى وتتداخل فى الشعور لتعود إلى الحياة. والذاكرة فى الإنسان أقل حصارا بالفعل. إذ تؤلف الذكريات فى وقت ما كلا متضامنا كالهرم الذى تتحرك قمته باستمرار مع الحاضر ويتحرك نحو الأمام.

يمنع النوم عقبات تداعى المعانى فى الذكريات وبالتالى يبدأ الحلم عندما يحدث الاتصال بين الحس والتذكير وكما فسر أفلوطين فى "التاسوعات" نظرية أفلاطون "العلم نذكر والجهل نسيان". فالإنسان يولد فى الحياة. وسقوطه فيها بداهية الحياة. لذلك تخرج الأحلام من اللاشعور. ويرتبط الإدراك والحلم فى حالة النوم. إذ يقوم الحلم على الإدراك والحلم فى حالة النوم. إذ يقوم الحلم على الإدراكات المسبقة المختزنة فى الذاكرة.

ولا يوجد منطق فى الحلم دون أن يكون بالضرورة متعارضاً مع المنطق. يقوم فقط على تداعى المعانى وترابط الذكريات. لا تغيب فى النوم موضوعات الاهتمام. وتستمر فى وجودها فى اليقظة والنوم. فينشغل بها العقل الباطن. اليقظة والإرادة شئ واحد، وتستمر الإرادة من اليقظة إلى النوم. ويتغير شكل الفعل، من الفعل المادى فى الواقع إلى الفعل الضمنى فى الحلم. وليس لدى الحالم أى قدرة على العطاء الفعلى فيعطى عن طريق التذكر. وما يقوم به الجهد هو الدقة والتكييف من أجل التوجه نحو العمل.

ويتسم الحلم بثلاثة أشياء: عدم الاستقرار وكأن الحلم لعب، وسرعة الحوادث، وتفضيل الذكريات غير الدالة. فالحلم له قدرة على الانتقاء.

**٣- الجهد العقلى[١].**

وهو موضوع نفسى كذلك. اعتمد فيه برجسون على علماء النفس المعاصرين خاصة ريبو، وبرندر جاست، وغيرهم مثل بينيه وجانيه وديوى[٢]،

---

(١) ES, p. 153-90 وقد صدر المقال فى "المجلة الفلسفية"، يناير ١٩٠٢.

(٢) برندرجاست Prendergast، ريبو(٣)، فيتاسيك Vitasek، هودانR.Houdin، وليم جيمس، تين، بينيه، أربوجاست Arbogast، كاى Kay، كاتل Cattell ، جولدشيدر،=

ووليم جيمس. ولم يُذكر فيلسوف واحد.

ويرتبط أيضاً بموضوع التذكر الأثير عند برجسون وإلى كتب فيه برجسون من قبل "المادة والذاكرة" (١٨٩٦). لذلك يحيل إليه برجسون مرتين[١]. فالجهد الفعلى جهد للتذكير أو استدعاء الذكريات. وهى مشكلة الانتباه فى علم النفس المعاصر ودرجة تركيزه بين التوتر والتراخى، أو بتعبير الصوفية بين القبض والبسط، وكذلك حالة حركة التمثل فى العقل لمعرفة خاصية العقل فى الجهد العقلى. لقد ركز ريبو على الظواهر الحركية المصاحبة. وهذا لا يكفى لوجود عامل ذهنى فى الجهد العقلى.

ويأخذ برجسون صورة متوسطة لدراسة الموضوع وهى أن إعادة الإنتاج أو التقليد أو النسخ أسهل من الإنتاج أو الإبداع[٢]. فالإبداع معاناة شعورية وخلق جديد فى حين أن التقليد مجرد تكرار يقوم عن وعى أو لا وعى. كما يلزم التمييز بين مستويات الشعورية، بين التذكر المشوب بالحس والتذكر الخالص، بين اللاحدس والحدس، بين التمثل التلقائى والتمثيل الإرادى. والتذكر الآلى لا يقوم على اهتمام خاص أو جهد عقلى خاص. إذ يتم التفكير أحياناً على نحو آلى.

ويستخدم الجهد العقلى فى آليات الحفظ. إذ يرى البعض أن يكون الحفظ

---

=Goldscheider، موللرMüller، بيلزبروج Pillsburg، إرودمان Erdmann، دودج Dodge، باجلى Bagley، لويس Lewis، بولان Paulhan، كبلر kepler، ديوى، باستيان(١).

(١) ES., p. 155,67

(٢) إعادة الإنتاج، التقليد النسخ Reprouduction

للجملة كلها حتى دون فهم معانيها كما يفعل غير قراء العربية فى حفظ القرآن الكريم صوتاً لا معنى. يكفى فى ذلك الصورة السمعية أو الصورة المرئية بوضع العينين على الأسطر. حينئذ يكون التذكر السمعى هو التذكر المحرك. وهذا ليس حفظاً بل استدعاء آليًا. وكل استدعاء يتطلب جهدا إذ يحرك الذهن نفسه من مستوى لأخر. ويصعب التذكر على هذا النحو الآلى إن لم تكن هناك لحظة ربط حسياً أو معنوياً، صورة أو دلالة. وقد يساعد على ذلك اختصار العبارات الطويلة فى جمل قصيرة كما هو الحال فى المثل العامى، وهو ما يتطلب جهداً. ويحتاج وقتاً للتذكر. لذلك يحتاج الواعظ عند وليم جيمس إلى أربعة أيام لحفظ خطبة بالطريقة الأولى. وبالطريقة الثانية يحتاج إلى وقت وجهد كبير، وانتباه أشد، وفهم أعمق.

وكلما كانت الصورة أو المخطط الذى عليه يتم الحفظ حركياً كان التذكر أسرع. وممن ضمنه المعنى أو الدلالة كعنصر ارتباط بين الحاضر والماضى. فالحركة أكثر تنبيها للذكريات من الثبات.

ليس التذكر فزيولوجيا خالصا عن طريق ترابط الاحساسات كما ظن تين وبينيه بل يحتاج إلى جهد لإعادة البناء وقوة وإدراك قيمته ووظيفته. لذلك تحدث بندر وجاست عن الهوس فى التذكر والربط بين الحاضر والماضى لتوجيه الجهد والطاقة نحو نقطة تماس، كما يتم توصيل السالب والموجب فى الكهرباء ولإيصال التيار. وهو ما يتطلب تربية الذاكرة كما اقترح كاى. والأهم تحويل المخطط إلى صورة والتمثل إلى خيال، وتحويل الأفقى إلى رأسى، والتاريخى إلى شعورى، والكم إلى الكيف، والمكان إلى زمان، إلى آخر ما عرف عن برجسون من ثنائيات.

والخلاصة أن جهد التذكر هو قلب التمثيل التخطيطى الذى تتداخل فيه العناصر التى تمثل بالصورة تتجاوز فيها العناصر استخدام ذلك بجهد إرادى. الجهد العقلى هو حركة الذهن ذهابا وإياباً بين الإدراكات أو الصور من ناحية ودلالاتها من ناحية أخرى. ليس الانتباه حسيا فقط بل هو أيضاً انتباه إرادى، يصاحب إحساساً بالجهد أى انفعالا أو تعاطفاً مع موضوع التذكر كما لاحظ لويس، وبالتالى الاثراء التدريجى للإدراك. والجهد العقلى بما أنه يفسر ويفهم ويتنبه هو إذن حركة مخطط حركى نحو الصورة التى يكونّها ينتج الإحساس بالجهد العقلى فى المسار من المخطط إلى الصورة.

والأهم هو جهة الاختراع أى الإبداع بالخيال كما لاحظ ريبو والتحول من المجرد إلى العيانى، ومن المخطط إلى الصورة. لذلك يميز ريبو بين صورتين للخيال الخلاق، حدسى وفكرى الأول يقوم على وحدة الأجزاء، والثانى على تجزئة الوحدة. يتكون العمل العقلى إذن من توجيه نفس التمثل من ثنايا مستويات الشعور المختلفة من المجرد إلى العيانى، من المخطط إلى الصورة.

ولا يتم العمل بمفرده لوجود عقبات يستطيع الجهد العقلى أن يتخطاها. وهو ما لاحظه ديوى أيضاً فى دراسته عن علم نفس الجهد واحتياج كل تعليم إلى جهد.

وتكون الصورة كما لاحظ باستيان صور حركية جزئية أولية. وتكون الحركة الكلية كما هو الحال فى الصورة السينمائية. وتبقى ثنائية المخطط والصورة لعملية التذكر.

ليس الأمر هو التمثل بل حركة التمثلات، تداخلها وتفاعلها. والانتباه حالة من التوحيد بتعبير ريبو فى "علم نفس الانتباه" ومن ثم فإن غنى الحالة العقلية

بمقدار ما تبذله من جهد. ومع ذلك فالوحدة التى يتجه الذهن إليها ليست وحدة مجردة جافة فارغة بل وحدة فكرة موجة، وحدة الحياة.

وهذه هى المشكلة الكبرى فى الميتافيزيقا، مشكلة العلّية بين الدفع والجذب بين العلة الفاعلة والعلة الغائية[١]. وهناك عالم متوسط بينهما وبين الامتداد والتوتر وهو الجهد العقلى. فهو النمو التدريجى المتنامى من اللامادى إلى المادى أو من المادى إلى اللامادى. وهى الخاصة الرئيسى لكل نشاط وحيوى.

هذا الوصف للتذكر بديل عن النظرية المسبقة وأصدق منها وأدق لأنه يعتمد على التجربة ولا يستنبطها من تصور مسبق[٢].

**٤- المخ والفكر، وهم فلسفى[٣].**

إن التوازى بين الحالة النفسية وحالة المخ فى صلب جزء كبير من الفلسفة الحديثة. وهناك على أكثر تقدير حالة نفسية فسفورية تضىء المخ أو تأتى من المخ تضىء النفس. المهم الموازاة بين الاثنين. تتبع الحالة النفسية ضرورة حالة المخ. ولا يستثنى من ذلك حتى الإنسان المتفوق أياً كان. فكل ما يحدث فى شعوره يحدث من قبل فى المخ، فالشعور لا يقول شيئاً أكثر مما هو موجود فى المخ يعبر عنه فقط بلغة أخرى.

وتقع المسئولية الفلسفية لهذا التوازى النفسى الفيزيقى على ديكارت

---

(١) التوحيد Monoidéisme

(٢) الدافع Impulsion، الجذب Attraction

(٣) ES., pp. 191-210. بحث مقروء فى مؤتمر الفلسفة فى جنيف فى ١٩٠٤ ثم نشر فى مجلة الميتافيزيقا والأخلاق بعنوان "التناقض النفسى الفزيولوجى. Le Paralogisme Psycho-physiologigue".

والديكارتية، الثنائية التى بدأ بها العصور الحديثة بين النفس والبدن[1].آثر الحل المثالى، تميز النفس والبدن، واعتبار العالم حركة وامتداداً فى القرن السابع عشر. ثم حدث رد فعل فى القرن الثامن عشر فى المادية التجريبية، ورد النفس إلى البدن، والفكر إلى المادة. وبدأ الصراع فى القرن التاسع عشر بين التيارين الكبيرين فى الفلسفة المثالية والواقعية.

ويرجع التشابه إلى استعمال الألفاظ أى استعمال لغة واحدة لمستويين مختلفين من حياة الشعور. ويرجع الخطأ أيضاً إلى خطأ منهجى فى الموقف وهو وضع الفيلسوف نفسه فى مستوى ثم ينتقل خفية إلى مستوى الآخر دون أن يحكم الميزان بين الطرفين، والتعادل بين الموقعين أى القلب، والانتقال من الشىء إلى التمثل كما يفعل المثالى أو من التمثل إلى الشىء كما يفعل الواقعى. فعند المثالى لا يوجد شىء فى العالم لا يظهر فى الشعور. وعند الواقعى لا يوجد شىء فى الشعور لا يوجد فى العالم. عند المثالى لا يوجد عالم مستقل عن الشعور المدَرك. وعند الواقعى العالم مستقل عن الشعور المدرك.

والحقيقة أن كلا الموقفين يختلفان فى الظاهر ولكنهما يتشابهان فى الباطن. فكل منهما يرد أحد الطرفين إلى الآخر. يرد المثالى الأدنى إلى الأعلى كما يفعل بركلى. ويرد الواقعى الأعلى إلى الأدنى كما هو الحال فى السيكوفيزيقا والنزعتين التجريبية والوضعية الاجتماعية بوجه عام. كلاهما يقعان فى التوازى بين المستويين دون تمييز، إما بالرفع عند المثالى أو بالخفض عند الواقعى، رد المخ إلى التمثل عن المثالى ورد التمثل إلى المخ عند الواقعى. وكلاهما ضحية مبدأ العلّية بصرف النظر عن ما العلة وما المعلول. التمثل علة والشىء معلولاً

---

(١) ديكارت (٢)، الديكارتية (١)، بركلى (١).

عند المثالى. والشىء علة والتمثل معلولاً عد الواقعى. كلاهما ضحية الخلط بين الكل والأجزاء، يضحى المثالى بالأجزاء لصالح الكل. ويضحى الواقعى بالكل لصالح الأجزاء.

والحقيقة أن الفكر ينتقل من المثالية إلى الواقعية المزيفة، ومن الواقعية إلى المثالية المزيفة. فمع الحس عند الواقعى هناك التذكر الذى يقوم بتحويل الإدراكات الحسية إلى ذكريات خالصة. ومع التمثل عند المثالى هناك الشعور المتواصل بالواقع. ويخطىء التياران لأنهما يقعان فى حتمية النظرية الإرتباطية بصرف النظر عن الانعكاس، ماذا يعكس ماذا؟ المخ انعكاس للواقع أم الواقع انعكاس للمخ؟ والحقيقة هو الطريق الثالث بين الاثنين الذى يقوم على التفاعل بين الطرفين أو الجدل بينهما. ففى كل طرف نصف الحقيقة وليس الحقيقة كلها. وكل منهما يرد الحقيقة إلى أحد أجزائها.

لا يحفظ الإدراك عند الواقعى إلا بانتقاله إلى المثالية. ولا يحفظ التمثل عند المثالى إلا بانتقاله إلى واقعية الشعور أو الشعور الفعلى الحقيقى فى العلاقة بين الطرفين وليس فى أحد الطرفين. ومن ثم يرد المذهبان المثالية والواقعية، إلى مذهب واحد حتى يمكن الخروج من الوهم القائم على أربعة أخطاء، الأول النفس الدماغية، والثانى أن كل عملية هى بالضرورة آلية رياضية كلية خاضعة للحساب وهو خطأ ديكارت، والثالث الانتقال من مذهب إلى آخر، والرابع أولوية أحد الطرفين على الآخر.

**٥- تذكر الحاضر والتعرف الخاطىء[١].**

وهو موضوع نفسى خالص فى علم نفس المعرفة تعرض إليه أفلاطون من قبل فى عبارته الشهيرة "المعرفة تذكر، والجهل نسيان"، فإذا رأى الإنسان شيئاً أو شخصاً يتهيأ له أنه رآه من قبل. فإدراك الحاضر يثير ذكريات الماضى. ويعتمد برجسون على علماء النفس المعاصرين وحدهم خاصة بيرجانيه وبيرنار ليروا وآرنون، وكرابلان وآخرين[٢]، التعرف الخاطىء من التماثل، والإدراك الحالى مع إدراك سابق يشبهه من حيث المضمون أو بعيد من حيث الكم أو الكيف. وكان برجسون قد تعرض له من قبل فى "المادة والذاكرة".

وهناك نظريات عديدة لتفسير ذلك، الشائع نفسيا هو نشأة صورة أثناء الإدراك أو قبله تُقذف فى الماضى ثم تقوم مراكز المخ بفعليين، إدراك الحاضر وإدراك الماضى فى نفس الوقت. وهى نظرية نفسية فزيولوجية.

وهناك نظرية أخرى تدخل العامل العاطفى الوجدانى ومدى الألفة بين الحاضر والماضى، وهى التى ترجع الحاضر إلى الماضى.

---

(١) نُشر هذه المقال أول مرة فى "المجلة الفلسفية Reyue philosophique عام ١٩٠٨. ES; pp.115-52

(٢) بيرجانيه (٦)، برنارلوروا Bernand-leroy، أرتو Arnaud، كريبلان Kraepelin(٤)، بيك Pick(٣)، هايمانز Heymans، كوريل Corel، ينسن Jensen، ساندر sander، لالاند Lalande، ميرز Myer (٢)، كوريا coriat، بوناتيللى Bonatelli، أنجيل Angel، هوفدنج Hoffiding، لوران Lorrain، بوردون Bourdon، ودرومارز Dromars، ألبيس Albes، بورجيه Bourget، سولى T.Sally، لابى Lapie، جراسيه Graset، ويجان Wigan، فوبية Foulllee، بيرون Piéron، لوميتر Le Maitre، ديجا Dugas، ليون كندبرج Leon – Kindberg(١).

وهناك نظرية ثالثة تدخل عامل الفعل وليس التمثل كما هو الحال فى الأولى أو العاطفة كما هو الحال فى الثانية. فالشعور يتجه نحو الفعل بطبيعته. فبمجرد إدراك الحاضر يستعد للفعل ويجند قواه ومنها قوة التذكر. وهو ما يتطلب الانتباه إلى الحياة، والتحول من "النفسية الدنيا" إلى "النفسية العليا". والهدف إنارة الفعل. فضرورة الفعل هى التى تفرض قوانين الاستدعاء. وهو فعل فلسفى وليس مرضاً نفسياً يتعلق بعدد الحادث بعدد الحالات النفسية وثقلها بحيث تكون المهمة الرئيسية فى علم النفس ليست تفسير كيفية حدوث ذلك عند المريض بل لماذا لا يحدث عند السليم. وقد يحدث هذا التعرف أحياناً عن وعى وأحياناً عن لا واعى بجهد التذكر والتركيز واستدعاء الماضى أو فجأة بإثارته. التعرف الخاطىء إذن أحد موضوعات التذكر.

ولا تتكون الذكريات قبل الإدراك بل معه ومصاحبة له ولما كان التذكر إحساساً فإنه يكون مصاحباً له. ولا يتجه الحاضر فقط نحو الماضى بل يتجه أيضاً نحو المستقبل. فإذا اتجه نحو الماضى فهو التحرف الخاطىء. وإذا اتجه نحو المستقبل فهو التوقع. والمستقبل مفتوح على الحاضر مثل انفتاح الماضى عليه. والتذكر بالنسبة للإدراك مثل الصورة المدركة وراء المرآة بالنسبة للموضوع الذى أمامها. الموضوع فعلى، والصورة مضمرة[1]. الإدراك للموضوع والتحرف الخاطىء باستدعاء الصورة، والصورة الحاضرة إدراك والصورة القديمة تذكر، وهذا الازدواج لا يوجد إلا فى الحساسية.

الإدراك الخاطىء "نوع من الشذوذ" يقلل من الانتباه إلى الحياة ويبعد الشعور عن الاتجاه الطبيعى ويسرح فى الماضى، والدافع الحيوى فى الشعور للتحقق وليس للتأمل لدفع الحاضر إلى المستقبل وليس لإرجاعه إلى الماضى.

---

(١) فعلى Actual – مضمر Virtual – الشذوذ Aromslie.

## ٦- الوعى والحياة[١].

وموضوعها الوعى والحياة والعلاقة بينهما. ولا تفرق إلا بالتجربة وليس بنظريات ومذاهب فلسفية مسبقة. فالموضوع يتضمن المنهج، ومن ثم دراسة آليات الفكر ونقده ثم نقد النقد يكشف عن التجربة ويزيح تغليفها بالنظريات القبلية المجردة. وأى منهج يمتاز لدى الفيلسوف بثلاثة أشياء، مدح حب الذات، وتسهيل العمل، وإعطاء وهم المعرفة النهائية. وينتهى المنهج إلى فكرة قائمة لا تستند إلى أى تجربة. ولا شيء يسبق التجربة. والعقل والاستدلال والتذكر والتأمل كل ذلك تال لها. الفلسفة بحث صاعد وليس استنباط هابطاً، تأويل وليس تنزيلاً البداية بالتجربة مع احتمال ثم تتكرر التجربة لمعرفةٍ أقل احتمالاً وأكثر يقيناً. ولا يوجد مبدأ يمكن استنباط كبرى المشاكل الميتافيزيقية منه على نحو رياضى إنما يتم البحث عن سلسلة من الوقائع للوصول إلى دلالاتها المتطابقة، وهو ما سماه الشاطبى من قبل فى "الموافقات" الاستقراء المعنوى"[٢]. الفلسفة إذن ليست بناء أو مذهباً يصوغه مفكر واحد بل محاولات متصلة للفهم، تتغير بتقدم البحث وتحقق الوقائع كما هو الحال فى العلم الوضعى.

يعنى الشعور الذاكرة. وقد كتب المقال بعد صدور "المادة والذاكرة" بخمسة عشر عاماً، والوعى ما يتراكم فيه. هو الزمان المتصل من الماضى إلى

---

(١) Es.,pp. 1-28 محاضرة هكسلى فى جامعة بيرمنجهام فى ٢٩ ١٩١١، وهى محاضرة باللغة الإنجليزية بعنوان Life and Conscionsness فى مجلة هيبرت Hibbert Tournal ١٩١١. وأعيد نشرها فى محاضرات هكسلى التذكارية Huxley memoria= =Lectures عام ١٩١٤. والنص المنشور فى الطاقة الروحية أحياناً الترجمة وأحياناً تطوير المحاضرة باللغة الإنجليزية. Es., p.1.

(٢) من النص إلى الواقع، حـ٢، بنية النص.

الحاضر، وقد لاحظ ليبنتز من قبل أن المادة "روح لحظى".[1]، ولا يشير برجسون إلى علماء النفس، كما فعل فى "المادة والذاكرة" فى عصره بل إلى الفلاسفة وحدهم مثل ليبنتز أو فلاسفة الحياة مثل هكسلى وداروين ولاماركت أو فلاسفة الاجتماع مثل أوجست كومت[2].

وكل وعى هو استباق نحو المستقبل وتطلع إليه. ويتوقع التوقع وعندما يتدخل الفعل. فكل فعل يعوق الاتجاه نحو المستقبل، الوعى هو الاحتفاظ بما لم يوجد والتطلع إلى ما لم يوجد بعد. وأهم سمتين للشعور هما الاعتماد والميل، يعتمد على الجسم وفى نفس الوقت يستقل عنه، ويميل نحو ويتجه إلى نظراً لبعده الوجدانى.

ولفهم ماذا تعنى "الموجودات الشعورية" من الضرورى الدخول فيها والإنماء معها بل والتوحد بها. لا يعطى القياس إلا الاحتمال. وهناك إمكانيات أخرى تقترب من اليقين.

وطبقاً للنظرية الفزيولوجية، الشعور مرتبط بالمخ. وهو صحيح فى الإنسان لا يعنى ذلك أن المخ شرط ضرورى للوعى. والأصح أن كل حى له شعور، فالشعور وجود مشترك الحياة والمخ مجرد آله للاختيار، واتخاذ القرار، وإتيان الفعل، دور الشعور هو الاختيار. والشعور اليقظ وليس الشعور النائم هو القادر على ذلك. وهى نفس التفرقة التى قام بها هوسرل من قبل. بل إن النوم واليقظة من صفات الكائن الحى، النبات والحيوان، وليس الإنسان وحده، الوعى حال فى كل شىء حى. تطابق اختلافات التوتر فى الوعى درجات الاختيار المتنوعة أى

---

(١) روح لحظى Esprit instantané.

(٢) ليبنز، هسكلى، لامارك، داروين، كومت.

قدرة الفعل على الخلق، وإذا كان الوعى يعنى التذكر والتطلع فإنه يكون مطابقاً للاختيار، يتوجه الوعى نحو الحركة والفعل، والوعى أثر فعال، وفعل حر.

ولا يمكن التنبؤ بحركة الشعور، والمادة مصمتة، هندسية وضرورة. أما الحياة فإنها حركة حرة لا يمكن التنبؤ بمسارها. الكائن الحى كائن مختار، والوعى مساوق فى وجوده للحياة. فإذا كانت المادة ضرورة كان الوعى حرية، الحاية هى بالضبط حرية فى الضرورة ومحيلة إياها لصالحها. الحياة فى مجموعها عمل

مزدوج للتراكم التدريجى وللصرف الفجائى. وعند الكائن الحى يسبق التمثل الفعل فالنظر يسبق العمل عادة، وكما هو شائع.

وكلما كان قدر الماضى الذى يحل فى الحاضر كبيراً كانت الكتلة التى يدفعها إلى المستقبل من أجل الإسراع على تحقيق الإمكانيات التى يتم الاستعداد أثقل.

وسواء كان الفعل أجراه الشعور أو أن الإدراك هو الذى أعده، فى كلتا الحالتين يظهر الوعى وكأنه قوة تنفذ إلى المادة للاستحواذ عليها وتحويلها إلى مصلحته. ويعمل بمنهجين متكاملين، الأول بفعل متفجر يحرر فى لحظة، ويحرك نحو الفعل المختار، وطاقة جمعتها المادة لمدة طوية. والثانى فعل مركز يجمع فى هذه اللحظة الفريدة عدداً لا يحصى من الحوادث تحققها المادة، وتلخص فى كلمة، الخلود فى التاريخ.

المادة خاضعة للضرورة بلا ذاكرة. وتختزن الدماغ عادات حركية وليس ذكريات. تملك الضرورى منها من أجل المرور عبر لحظتين. كل لحظة يمكن استنباطها من الثانية. ولا تضيف جديداً إلى ما هو موجود فى العالم. ومن ناحية

أخرى، هناك الوعى أى الذاكرة مع الحرية أى تواصل الخلق فى ديمومة متنامية. وتثير المادة الجهد وتجعله ممكنا. ثم يتركز الجهد ويبرز ويصبح فاعلاً مؤثراً. لقد ركز دارون ولا مارك على تطور الأنواع على نحو آلى. ثم يظهر الإنسان فجأة وعلى نمو غير متوقع. وبعد أن يخلق يتكرر إلى ما لانهاية بإمكانية مفتوحة للاختيار.

وأكبر محركين للنشاط الإنسانى هما الحب والطموح. وكلاهما قادران على تخطى العقبات. وهو مسار التطور الذى يؤدى إلى الإنسان. فالتطور يقسم ويحدد، ويفرّع ويفرد، يشعّب ويبين.

مهمة الفلسفة التأمل فى معنى الحياة ومصير الإنسان بالإضافة إلى ما توحى به الطبيعة، وعلاماتها السعادة وليس اللذة. وحيث توجد السعادة أو الفرح يوجد الإبداع[1]. وإذا تم النصر فى الحياة للخلق والإبداع فإنها تستطيع أن تتواصل مثل الفنان والعالم عند كل الناس. خلق الذات بالذات نضج الشخصية.

وتبدو الطبيعة كفوران كبير جدة لا يمكن التنبؤ بها. الحب واقعها الرئيسى. عقباتها الآلية والرتابة. ويُدعى الإنسان إلى الاعتماد دائماً على ماضية من أجل الانطلاق نحو المستقبل. وهو نجاح كبير للحياة. وتتجلى بطولة الإبداع. وشق طرق جديدة توحى بحقائق ميتافيزيقية. ينطلق الدافع الحيوى فى مسارين: اللافقريات والفقريات، الحشرات والحيوانات، المجتمع الإنسانى والفرد، أو الإنسان المتفوق، الفنان والمبدع والصوفى والنبى. الحياة صراع ومطلب للإبداع والتطور الخالق. ولقد أعلن أوجست كومت من قبل أن التركيب الكيماوى للأجسام السماوية غير معروف. وبعد ذلك بعدة سنوات تم اكتشاف ألوان الطيف. وتستطيع أن تعرف الآن من أين تصنع النجوم، تفاؤل لا محدد بمستقبل الإنسان.واستمرار الدافع الحيوى.

---

(١) السعادة:. oie اللذة: Plaisir

## ٧- النفس والبدن[١].

وهو التقابل الشهير بين المادة والروح أى بين ما هو موجود وما هو غير موجود، ليس الغرض التعمق فى المادة أو فى الروح أو تحديد ماهية كل منهما بل العلاقة بينهما وليس وهو نفس موضوع "المادة و"الذاكرة" ونفس العنوان الفرعى فيه محاولة فى الصلة بين "البدن والنفس"، وبعده بخمسة عشر عام مما يدل على أنه حدس رئيسى متواصل. والعلاقة بينهما تحددها التجربة بل والتجربة المباشرة الساذجة بالمعنى الشائع. وكل الفروض النظرية المسبقة لا يبرهن عليها إلا من خلال التجربة. التجربة إذن هى القادرة على تحديد العلاقة بين المخ والشعور. وتشمل التجربة منهج الملاحظة الداخلية أو الاستبطان فالتجربة خارجية. وداخلية، كذلك مهمة الفلسفة إنزال نظرية المثل عند أفلاطون من علبائها. الفكرة توقّف للفكر. وتوجد عندما يتوقف الفكر ويستريح ويعود إلى ذاته[٢]، ويكفى عند من التجارب والوقائع حتى ندرك. الحقائق وهو ما سماه الشاطبى الاستقراء المعنوى وفلاسفة العلم "الاستقرار الناقص" وتعميمه طبقاً لمبدأ الاطراد فى الطبيعة.

كل منا له بدن. وكل منا يشعر به فى عالمه الخارجى وعالمه الداخلى، بفعله الإرادى واللارادى، الحركى والشعورى. وهو ما يسمح لنا أن نقول "أنا" أو"إنى". وهو وجود فى المكان يشع خارجه بقوى الإدراك والرؤية. ووجود فى

---

(١) E.S pp., 29-60، وهى محاضرة ألقيت فى منتدى "الإيمان والحياة" فى ٢٨ إبريل ١٩١٢، وظهرت مع كتابات أخرى لمؤلفين آخرين فى مجلية بعنوان "المادية الراهنة فى= =سلسلة "مكتبة الفلسفة العلمية التى يشرف عليها جوستاف لوبون Gastave Le Bon عند الناشر فلاماريون Flammarion.

(٢) L'âme et le corps, ES., p. 45.

الزمان. فالبدن مادة، والمادة فى الزمان. والمادة فى الحاضر، والماضى يترك أثره فى الحاضر، فى الوعى الذى يدرك ويفسر ما يراه فى ضوء ما يتذكر، وكما يصب الماضى فى الحاضر، يتطلع الحاضر إلى المستقبل. الوعى إذن يخلق نفسه بنفس بنفسه، وهو موضوع الحياة الإنسانية. والروح هى القوة. تجذب أكثر مما تحتوى. وتعطى أكثر مما تأخذ، على الأقل فى الظاهر.

ولا تعمل النفس بلا بدن. إذ يصاحب البدن النفس من المهد إلى اللحد. يستطيع المخدر أن يؤثر فى الذهن والإرادة ويترك وراءه أمراضاً واعترافات. أما بالنسبة للزمان، يضم الروح الماضى فى حين ينصب البدن على الحاضر ويبدأ من جديد فيه. وفى النظرية المادية يضاف الشعور إلى المادى كمادة فوسفورية أشبه بأثر مضىء. والحقيقة فى الدماغ.

وكما توجد قوانين فى الطبيعة مثل قانون حفظ الطاقة، توجد قوانين للشعور أو الوعى. بالرغم من أنه نشاط إرادى حر. وإذا استطاعت الإرادة أن تحافظ على الطاقة فإن كم الطاقة المتولدة ضعيف للتأثير على آلات القياس. وقد يكون الأثر هائلاً.

وأخطر شىء وقع فيه الوعى الأوروبى هو التوازى القائل بين الفيزيقى والنفسى، بين البدن والنفس. وقد بدأ ذلك من الثنائية الديكارتية فى القرن السابع عشر[1]. لذلك تبرز أهمية ديكارت والديكارتية كبداية لهذا الخطأ الذى استمر حتى القرن التاسع وأوائل العشرين قبل أن يتصدى إليه هوسرل وبرجسون.

وقد بدأ العلم الحديث منذ عصر النهضة خاصة عند كبلر وجاليليو بتحويل

---

(١) الديكارتية(٢)، ديكارت، (١)، أفلاطون ، اسبينوزا، ليبنتز، كبلر، جاليليو، لامترى، هلفسيوس، بونيه، كابانيس، بروكا(١).

العلوم الفلكية والفيزيقية إلى مشاكل آلية. ومن هنا نشأت فكرة تمثل كل العالم المادى، آلة كبيرة خاضعة لقوانين رياضية. وهو ما سماه هوسرل تحويل الطبيعة إلى رياضة بما فى ذلك جسم الإنسان وكأنه ساعة. وبالرغم من حتمية الطبيعة عند ديكارت إلا أنه ترك الإرادة حرة. وانتهى هذا الاستثناء عند اسبينوزا وليبنتز نظراً لسيادة منطق المذهب مما أوقعهما فى التوازى بين البدن والنفس دون أن تكون النفس مجرد انعكاس للبدن. بل آثرا أن يكون البدن انعكاساً. واستمر التوازى من القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر كتصوير ساذج لميتافيزيقا ديكارت عند لامترى وهلفسيوس وبونيه وكابانيس.

الفكر الذى يتحول إلى فعل هو المرتبط بالمخ أى بآلة الحركة. إذ يتوجه الفكر نحو العمل الفعلى أو الضمنى. والحقيقة أن وظيفة المخ هو الانتباه للحياة وليس وضع الروح فى الشىء. وظيفة المخ استدعاء الذكريات، وإثارة ملكة الحفظ من الذكريات المتراكمة. وكما لا يمكن عمل خط فاصل بين الماضى والحاضر فكذلك لا يمكن وضع خط فاصل بين الذاكرة والوعى. حياة الروح غير حياة الجسد. وحياة العقل تند عن حياة المخ.

ويخير برجسون فى النهاية بين منهجين. الأول من أجل الحصول على اليقين وبسرعة تظل فى المحتمل أو الممكن لأنه من الصعب الحياد بين الدعاوى المتعارضة، وكلها ممكنة. والثانى التوجه إلى المثل حيث يظل الاحتمال قائماً بلا نهاية، وينتهى إلى حالة شبيهة. فأى المنهجين أولى بالاختيار؟

## ٨- أطياف الأحياء والبحث النفسى[١].

وهى دراسة عن الظواهر شبة النفسية فى شبة علم النفس مثل التراسل الروحى[٢]. يدافع فيها برجسون عن حقيقة هذه الظواهر مثل رؤية عمر فى مكة جيش المسلمين فى الشام والأعداء يحاصرونهم وصراخه من فوق المنبر "يا سارية، الجبل، الجبل!". ويورد برجسون رؤية زوجة زوجها فى الحرب وهو يطلق عليه النار. وهو ما يقوله الصوفية من أن حواس الصوفى تعمل بقوة أكثر من حواس الإنسان العادى. إذ تستطيع العين أن ترى، والأذن أن تسمع، والأنف أن تشم على بعد آلاف الأميال. ويدافع برجسون عن هذه الظواهر اللاعلمية ضد من يعتبرها خارج نطاق البحث النفسى. من ينكرونها هم أشباه علماء لأنهم باسم العلم يرفضون دراسة ظواهر نفسية. ودراستها لا تعنى التخلى عن النظرة للعلم. وفرق بين الرفض والنقد، وأهم شئ فى الموضوع هو المنهج الذى لا يتطلب منهجاً فزيولوجيا أو فزيولوجيا نفسياً بل يتطلب منهجاً نفسياً خالصاً. فالمنهج هو مجموع الأدوات.

وإذا كان التراسل الروحى واقعة فعلية فإنها تتكرر إلى ما لانهاية. ويمكن تفسيرها تفسيراً طبيعياً بأن مخ الإنسان يفرز شحنات كهربائية طول الوقت. قد تكون أطيافاً أو "أشباحاً" له يستقبلها إنسان آخر. وقد لا تختلف "الهلوسة" الحقة عند ذلك. والطريق إليها ليس البراهن الرياضية عند فيثاغورس ولا قوانين العلم

---

(١) "Fantômes des vivants et réchercne Pysychique" E.S., pp., 61-84. وهى محاضرة ألقيت أولاً فى جمعية البحث النفسى فى لندن فى ٢٨ مايو ١٩١٣.

(٢) شبة علم النفس Parapsychologie ، التراسل الروحى Télépathie.

عند جاليليو[1]. بل هو طريق الواقع. وإنكار الواقع ليس من شيمة العلماء، هذا لا يعنى توسيع نطاق التجربة بحيث تشمل كل شيء. كما لا يستطيع الفكر النفاذ إلى الأشياء بل يحولها فقط إلى كم حسابى. ولا يقال إنها من قبل الصدفة طالما أنها تتكرر، وتقدم على العلة، بين صفاء القلب ومدى الرؤية بين الحب بين شخصين.

ولا تفسر النظرية المادية مثل هذه الظواهر لأنها تقوم على التوازى الفيزيقى النفسى، وعلى إحالة الظواهر النفسية إلى مراكز المخ. صحيح أن المخ آله جسمية مركبة، ولكنه ليس مصدر الظواهر النفسية. قد يكون آلة تقليد وليس آلة إبداع. وعلاقة ظواهر المخ بالحياة العقلية مثل حركات قائد الموسيقى بالسيمفونية. وظيفة آلية المخ هو تخبئة الماضى من أجل التحول إلى الفعل على عكس بلوندل الذى يكون الفعل فيه انبثاقاً للفكر. وكل ذرة عند ليبنتز صورة واعية أم غير واعية للعالم كله. الوعى يتجاوز العضو. والحياة الزمنية أوسع نطاقاً من حياة الدماغ، حتى الحلم الحديث عند كبلر وجاليليو ونيوتن يتأسيس فى علم النفس أى فى الإدراك استئنافاً لما بدأه أرسطو من جعل علوم الروح مازالت فى البداية، وكان يمكن للعلم الحديث منذ نشأته أن يأخذ الأشياء من الطرف الآخر ولكنه آثر أن يكون أحادى الطرف، المادة وليس الروح هو عالم السر.

---

(١) يذكر برجسون بعض أعلام الفلاسفة ليس من بينهم علماء نفس مثل: فيثاغورس، ليبنتز، أرسطو، جاليليو، كبلر، نيوتن، وأحد الشخصيات مثل البصريات مثل بييرمارى.

# الفصل الثانى

# المنهج: الفكر والمحرك

## ١- التفكير فى المنهج.

ليس برجسون فقط صاحب موضوع بل أيضاً صاحب منهج. وهو على وعى به تماماً نظرياً، وطبقه عملياً. ويقوم هذا المنهج على التصدى لخطأ شائع مثل السيكوفيزيقا واكتشاف سببه، الخلط بين المستويات، ثم تفنيده عن طريق اختيار صورة متوسطة يتم الحفر فيها حتى تنتزع الرصاصة التى تهدد الجريح بالموت أو الداء الذى يهدده بالفناء.

ويعترف برجسون فى مقدمة "الطاقة الروحية" بأنه شرع بناء على اقتراح بعض أصدقائه بجمع مقالاته التى ظهرت فى أماكن متعددة والتى يصعب العثور عليها. ترجم البعض منها، ونشر نشرات مستقلة فى بلاد عديدة فى كتيبات مثل "مقدمة إلى الميتافيزيقا" فى ست أو سبع لغات مختلفة دون الفرنسية. وقد ألقى البعض منها كمحاضرات خارج فرنسا. ومنها ما هو فقط بالإنجليزية.

نشرت هذه المقالات والمحاضرات فى جزأين. الأول، يضم كل الأعمال حول مشاكل معينة فى علم النفس والفلسفة، ترجع كلها إلى "الطاقة الروحية". بينما يضم الجزء الثانى، الأعمال الخاصة بالمنهج مع مقدمة تبين مصادر هذا المنهج ومساره إلى التطبيق تحت عنوان "الفكر والمحرك"(١).

ويبدو أن برجسون كان يكتب محاضراته سلفاً وبعناية ثم يقرؤها وهو يلقيها دون ارتجالها وهو ما يقلل من قيمة الخطاب الشفاهى فى المحاضرات العامة، ويجعله ينعكس على المقال المكتوب فى كثرة استعمال ضمائر المتكلم والمخاطب والجمع.

ويقدم برجسون نفس الكتاب فى تصدير مبيناً أنه يشمل محاولتين لتقديم

---

(١) .ES., pp, VII- VIII

الكتاب كتب خصيصاً لذلك. ومن ثم لم يُنشر من قبل. يمثلان ثلث الكتاب. والجزء الآخر مقالات ومحاضرات يصعب وجود معظمها، ظهرت فى فرنسا أو فى الخارج فيما بين ١٩٠٣-١٩٢٣. وتنصب كلها على المنهج الذى يوصى برجسون الفلاسفة بإتباعه مع البحث عن أصل هذا المنهج وتحديد اتجاهه فى البحث. وهذا هو موضوع المقدمتين الأولى والثانية.

أما كتاب "الطاقة الروحية" الذى صدر عام ١٩١٩ فقد ضم "محاولات ومحاضرات" تشمل بعض نتائج أبحاث برجسون. أما هذا الكتاب فقد ضم مجموعة من "المحاولات والمحاضرات" خاصة هذه المرة بعمل البحث نفسه، فهو يكمل الأول(١).

وقد سمحت "مفوضيات صحافة كلارديون" فى أكسفورد بإعادة إصدار محاضرتين بعد اعدادهما للطباعة بعنايتها بعد إلقائهما فى جامعة أكسفورد عام ١٩١١.

أما الأعمال الأخرى فهى مجموعة من المقالات مجمعة تحت عنوان واحد شامل يجمعها مثل "الفكر والمحرك" و"الطاقة الروحية" الأول عن المنهج والبيئة الثقافية التى نشأ فيها، والثانى عن الموضوع. ويشمل "الفكر والمحرك" تسعة موضوعات: اثنان منها مقدمة. الأولى "نحو الحقيقة"، "الحركة التراجعية للحقيقى". والثانية فى "وضع المشاكل". والثالثة "مقدمة إلى الميتافيزيقا". وثلاثة تطبيقية "الممكن والواقعى"، "الحدس الفلسفى"، "إدراك التغير". والثلاثة الأخيرة دراسات حول أهم الأعلام الذين أثروا فيه وكتب عنهم: "فلسفة كلود برنار"،

---

(١) H. Bergson: La Pensée et le Mouvant, PUF, paris,31.ieme ed. (P.M.) .Avant – propos

"حول البرجماتية عند وليم جيمس"، "الحقيقة والواقع"، "حياة رافيسون وعمله". وقد كتب هذه الدراسات التسع على مدى عشر سنوات (١٠٠٣-١١٢٠) وعمره ما بين ٤٤-٦١ عاماً. وكتب خمسة منها عام ١٩١١، واثنان قبلها ١٩٠٤/١٩٠٣ واثنان بعدها ١٩١٣/١٩٢٠[1]، وكل مقال قائم بذاته بالرغم من دخول المقالات التسع كلها تحت عنوان واحد هو "الفكر والمحرك". وهما ليسا عنوان مقال. بل إن الفكر ليس مصطلحاً برجسونياً. "والتغير" هو المصطلح البرجسونى وليس المحرك.

ويعترف برجسون فى أول هامش لمقاله "مقدمة إلى الميتافيزيقا" أنه منذ هذا العصر كانت مهمة الفلاسفة تحديد معانى هذه الألفاظ، "ميتافيزيقا" و"علم". والفيلسوف حر فى أن يعطى الكلمة المعنى الذى يريد عندما يريد تحديدها. ولا شىء يمنع من تسمية "علم" أو "فلسفة" وكما تم ذلك من قبل ولمدة طويلة كل نوع من المعرفة بل يمكن أن يضم الكل فى الميتافيزيقا. ومع ذلك تحيل المعرفة إلى

---

(١) حسب الترتيب الزمانى.

١- مقدمة إلى الميتافيزيقا (١٩٠٣).

٢- حياة رافيسون وعمله (١٩٠٤).

٣- مقدمة (الجزء الأول). نحو الحقيقة، الحركة التراجعية للحقيقى (١٩١١).

٤- مقدمة (الجزء الثانى). فى وضع المشاكل (١٩١١).

٥- الحدس الفلسفى (١٩١١).

٦- إدراك التغير (١٩١١).

٧- حول برجماتية وليم جيمس. والحقيقة والواقع (١٩١١)

٨- فلسفة كلود برنار (١٩١٣).

٩- الممكن والواقع (١٩٢٠).

اتجاه معين عندما تحصل على موضوعها من أجل قياسه. وتسير فى اتجاه آخر عندما تتخلص من كل خلفية فكرية حول العلاقة أو المقارنة من أجل التعاطف مع الواقع.

يتفق المنهج الأول مع دراسة المادة، والثانى مع الروح. وهناك تداخل بين الموضوعين، واعتماد متبادل بل وتعاون بينهما. فى الحالة الأولى يتم التعاون مع الزمان المكانى والمكان. وفى الثانية مع الديمومة الفعلية. وظهر أنه من المفيد من أجل توضيح الأفكار تسمية الحالة الأولى "معرفة" والثانية "ميتافيزيقا". ولصالح الميتافيزيقا يقيم برجسون "فلسفة علم"، أو "ميتافيزيقا علم" التى فى ذهن كبار العلماء داخل علومهم والملهم غير المرئى لهم. وفى هذا المقال يعمل برجسون لصالح العلم لأن العلماء قد تناولوه أكثر مما تعامل معه الميتافيزيقيون.

وقد كتب هذا المقال فى عصر يقبل فيه النقد عند كانط والقطعية التى وقع فيها خلفاؤه كنتيجة أو على الأقل كنقطة بداية للتأمل الفلسفى(١).

ويذكر برجسون من الفلاسفة أفلاطون وكانط كنموذجين للمعرفة العقلية، وتين ومل كنموذجين للمعرفة التجريبية. كما يذكر جاليليو أحد مؤسسى العلم الحديث. ومن القدماء يذكر أفلوطين وأرسطو، ومن الشعراء هوميروس "الألياذة"(٢).

---

(١) Introduction à la Métaphysique, PM., p. 177. الواقع Réalité

(٢) الأفلاطونيون(٣)، الأفلاطونية، أفلاطون(٢)، يسير وفق نهج أفلاطون(١)، كانط (٣)، كانطى(٢)، جاليليو(١)، أرسطو(٢)، أفلوطين(١)، تين(٢)، مل(١)، هوميروس، الالياذة(١).

٢- **مقدمة إلى الميتافيزيقا**[١]. كتب هذا المقال الطويل بين "المادة والذاكرة" (١٨٩٦) و"التطور الخالق" (١٩٠٧) ليحدد برجسون فيه المنهج وتصوره للميتافيزيقا أى الفلسفة الخالصة والعلم وهو ما كان سائداً فى عصره. وهى نفس المشكلة التى وضعها ديكارت فى "شجرة المعرفة الشهيره" ثم كانط فى "المقدمات لكل ميتافيزيقيا مستقبلة تريد أن تصير علماً ليبين ارتباط الفلسفة بالعلم".

وبمقارنة تعريفات الميتافيزيقا يلاحظ أن الفلاسفة وبالرغم من اختلافاتهم الظاهرية قد ميزوا بين طريقتين مختلفتين لمعرفة الشىء. الأولى الدوران حوله، والثانية الدخول فيه. يتوقف الأول على وجهة النظر ورموز التعبير. والثانية تتجاوز وجهة النظر ولا تستعمل أى رمز. الأول يتناول النسبى فى حين يتعامل الثانى مع المطلق. مثال ذلك حركة الشىء فى المكان، يمكن إدراكها من الخارج من وجهة نظر المتحرك والثابت طبقاً لمحاور الحركة الدائرية أى طبقاً للرموز. وهى المعرفة النسبية. أما الحركة المطلقة فتعزى إلى المتحرك من الداخل أو كحالات للنفس أى التعاطف مع الحالات والنفاذ إليها بقوة الخيال كما هو الحال عند الروائى. الأولى معرفة متوسطة، والثانى معرفة مباشرة. الوصف والتاريخ والتحليل يقدم معرفه نسبية. فى حين أن الاتحاد مع الشىء يعطى معرفة مطلقة. لذلك كان المطلق هو الكمال. أما الصور الضوئية وترجمات الشعر مثل شعر هوميروس من النوع الأول. المطلق شىء بسيط. وهو شىء آخر إذا تمت رؤيته من الخارج. لا يدرك المطلق إلا بالحدس، فى حين يدرك النسبى

---

(١) PM., pp. 177-227، مقال نشر لأول مرة فى "مجلة الميتافيزيقا والأخلاق" عام ١٩٠٣.

بالتحليل. والحدس هو التعاطف الذى يمكن من خلاله النفاذ إلى الموضوع من أجل الاتحاد بما يتفرد به، ولا يمكن شرحه. فى حين أن التحليل على العكس، هى العملية التى تجمع حول الموضوعات معلومات معروفة سلفاً أى المشتركة بين هذا الموضوع وغيره من الموضوعات. التحليل هو التعبير عن شىء بغيره. وعلى هذا الأساس كل تحليل ترجمة، تطور الرموز، تمثلات جديدة متتابعة لنفس الموضوع أو قديمة معروفة. الحدس يحيط بالموضوع فى إدراك واحد فى حين أن التحليل يكرر إلى ما لانهاية وجهات النظر المعروفة حوله لإكمال التمثلات الناقصة، وإدخال التعديلات على الرموز غير الكاملة بطبيعتها. مهمة العلم الوصفى التحليل بما فى ذلك علوم الحياة ورموزها المرئية، إلا أن علوم الحياة فى حاجة إلى معرفة مباشرة بدلاً من المعرفة النسبية، والاتحاد معها بدلاً من تبنى وجهات نظر حولها، وإدراكها بالحدس وليس بالتحليل وخارج كل ترجمة وتمثل رمزى. وهو ما تقوم به الميتافيزيقا. الميتافيزيقا إذن: "هى العلم الذى يتجاوز الرموز[1].

والحدس مرتبط بالشخص، والشخص تعاطف عقلى أو روحى، وهو مع الذات قبل أن يكون مع الموضوع. الحدس قلب النظرة من الخارج إلى الداخل كما هو الحال عند هوسرل. وفى الداخل هناك عالم الشعور والذكريات والتطلعات، الحاضر المنفتح على الماضى والمستقبل. هو زمان وديمومة وميول واتجاهات. الوعى هو الذاكرة وكما عرض برجسون من قبل فى "المادة والذاكرة" (١٨٩٦).

والحقيقة أن الشعور ليس فك "رول" ولا ضمه. فلا توجد لحظتان متشابهتان

---

(١) Ibid., pp. 177-82.

فى الشعور. فإذا تشابهتا يصبح الشعور بلا ذاكرة، ويتحولان إلى اللاشعور. تستبعد الديمومة كل فكرة عن التجاور والتخارج المتبادل والامتداد. الفعل الحركى لا ينقسم، وفعل التوتر حركة خالصة. ويمثل فك "الرول" وحدة حركة تتقدم فتتكشف حالات عديدة على امتدادها. الديمومة تواصل، والحياة الداخلية تنوع من الكيفيات، تواصل للتقدم، ووحدة الاتجاه. ولا يمكن تمثلها بالصورة ولا بالتصورات أى بالأفكار المجردة أو العامة أو البسيطة. الصورة تعمم المتشابهات، والحدس يفرد الخصائص.

موضوع الفلسفة يخلقه العمل، وتثيره عادات الروح، ويفيد فى الحياة العملية. وهو موضوع عيانى لا يمكن أن يستبدل به حدس الديمومة الذى يدرك الشىء دون حجاب. ولا يمكن تناوله مع تصورات الوحدة والتعدد والتواصل والقسمة النهائية أو اللانهائية. هذا هو الوهم. وهذه أيضاً هى الخطورة. تفيد الأفكار المجردة فى التحليل أى فى الدراسة العلمية للموضوع فى علاقاته المتشابهة مع الموضوعات الأخرى على التبادل. ليس للتصور أى ثقل مثل ظل الجسم. خطورته ليست فقط فى تغليفه الموضوع بل فى تعدد رؤاه بتعدد المذاهب الفلسفية، وتقسيم الوحدة الفعلية للموضوع فى تعبيرات رمزية، وتقسيم الفلسفة إلى مدارس متميزة. كل منها يصارع من أجل جزء أو إدعاء تمثيل هذا الجزء للكل. وتتحول الميتافيزيقا إلى لعبة أفكار، فى حين أن دور الميتافيزيقا هو تجاوز هذه الأفكار للوصول إلى الحدس. تتضارب الرؤى المتعددة مما يحتاج إلى جهد الخيال للتوحيد بينها للوصول إلى وحدة الشىء من خلال وحدة

الديمومة المتغيرة الحركية الحية الملونة، وليست الوحدة الثابتة المجردة الفارغة كما هو الحال فى تصدر الوحدة الخالصة[1]. لاخلط إذن بين دور التحليل ودور الحدس وهو سبب السجال بين المذاهب والمدارس الفلسفية.

ويستعمل علم النفس التحليل مثل باقى العلوم. يفك الذات كحدس أولى بسيط إلى إحساسات وعواطف وتمثلات...الخ. يدرس كل منها على حدة، ويجعل هذه العناصر أجزاء الموضوع الواحد، الشخصية الإنسانية. الماضى والحاضر والمستقبل، تيار شعورى واحد، لا تجريد فيه ولا قسمة، لكل شخصية وحدتها وتفردها ولونها وخصائصها المستقلة. لا تتكرر. لذلك نشأ "علم النفس الفردى" بجوار "علم النفس العام" وكانت النتيجة تشظى الشخصية الإنسانية إلى عناصر وتعبيرات جزئية. ليست الحروف أجزاء تكوينية فى العبارة بل تعبيرات جزئية عن وحدات كلية بالرغم من قسمة الشعر إلى بحور، والعبرات إلى تراكيب، والإنسان إلى مجموعة من الأجهزة العضوية، والذرة إلى جزيئات.

ولا فرق فى ذلك بين التجريبية والعقلانية. إذ يأخذ كلاهما التعريفات الجزئية وكأنها أجزاء فعلية، خلطا بين وجهتى النظر التحليلية والحدسية ،العلمية والميتافيزيقية. الأول تجعل الإنسان مجرّد حالات نفسية. وهو خطأ جون

---

(١) Ibid., pp 182-89.

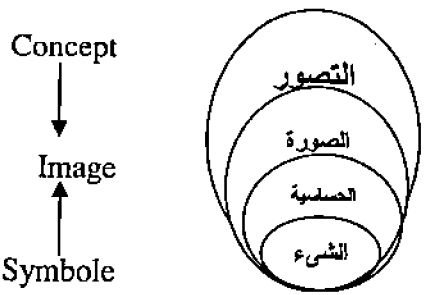

استيوارت مل، وتين، وخلط بين وجهة نظر الحدس ووجهة نظر التحليل، والبحث عن الأصل فى الترجمة. وترتكب العقلانية نفس الخطأ. إذ تعتبر الحالات النفسية كشذرات متقطعة لذات تحاول تجميعها. وفى كلتا الحالتين، يتم الاستدلال على عناصر الترجمة كأنها أجزاء حقيقية[١].

الشخصية وحدة واحدة. والسؤال هو أى وحدة وأى تعدد وأى واقع؟ الحدس هو حدس الذات لنفسها بنفسها. وكل معرفة للأشياء هى معرفة عملية متجهة إلى مدى الفائدة منها. فى حين أن الفلسفة هى اتجاه نحو الموضوع بقوة الحدس.

ومسار التصورات مسار ثنائى متعارض، دعوى ونقيض الدعوى، والواقع محاصر بينهما، ويتحرر من خلالهما. والتفكير هو الانتقال من التصورات إلى الأشياء، وليس من الأشياء إلى التصورات. التصورات والمخططات التى يستعملها التحليل ثابتة فى حين أن الموضوع متحرك مما يؤدى إلى المفارقه بين التصورات والأشياء، والعلم الحديث دحرج البلية على سطح مائل لدراسة الحركة من أعلى إلى أدنى. ولم يكتف بدراسة مفاهيم الأعلى والأدنى كالعلم القديم[٢].

يتجه التحليل نحو الثابت، فى حين يتجه الحدس نحو المتحرك، وهى الديمومة. يبحث التحليل عن التعريف، وهو مخطط، إعادة بناء بسيط، وعادة ما يكون مجرد رمز. الخطأ هو اعتبار هذه التمثلات والتصورات والمخططات بديلاً عن الواقع. وحروف القصيدة ليست أجزاء منها بل عناصر لرمز. ويرتبط الرمز بالعادات وطرق التفكير وأساليب التعبير. وإذا أمكن للتحليل أن يتناول

---

(١) Ibid., pp 189-93.

(٢) Ibid., pp. 189-200.

الحدس ويحوله إلى تصورات جاهزة فإنه ينتهى إلى تصورين متعارضين. فهناك تعدد حالات الشعور المتتالية، وهناك أيضاً وحدة تجمعها.

كما لا يوجد شعور بلا ذاكرة، لا يوجد تواصل فى الحالات الشعورية دون قوة أو ضعف، زيادة أو نقصان، دون إحساس بالحاضر وتذكر اللحظات الماضية. وهذه هى الديمومة الداخلية، الحياة المستمرة للذاكرة من الماضى إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل. وبقاء الماضى فى الحاضر ليس هو الديمومة بل هى اللحظية. الديمومة فى صيرورة مستمرة بعيداً عن الزمن الحسابى الكمى المجرد.

ومشكلة الحركة مشكلة قديمة منذ خلط زينون الإيلى بين المكان والزمان، بين ما ينقسم وما لا ينقسم. أما الديمومة الفعلية فإنها لا تنقسم ولا تتعدد ولا تتبخر فى لحظات لا يدوم أى منها.

منهج برجسون يتجاوز المثالية والواقعية، ويبدد الغموض المتراكم حول المشاكل الفلسفية الكبرى عن طريق الحدس. وهو ليس فعلا واحداً بل سلسلة من الأفعال اللامتناهية[1].

وهناك فرق بين خلود الموتى وخلود الأحياء. التحليل أى التقسيم ثم التوحيد للتصورات خلود الموتى. أما الحدس، حدس الحالات الشعورية. فهو خلود الأحياء.

والواقع حركة مثل الحدس. فالموضوع والذات من نفس النوع وهى حركة تدريجية على النحو الآتى:

١- هناك واقع خارجى، معطى مباشر للذهن. وهو ما يؤيده الحس

---

(١) Ibid., pp. 200-211 اللحظية Instatanéité.

المشترك ضد المثالية والواقعية عند الفلاسفة.

٢- هذا الواقع حركة وليس أشياء جاهزة بل أشياء فى طريق الوجود. ليس حالات ثابتة بل حالات متغيره. كل واقع إذن هو ميل واتجاه فى حالة النشأة والتكوين.

٣-عندما يتبع الذهن مساره الطبيعى يبدأ بالإدراكات المتينة من ناحية وبتصورات ثابتة من ناحية أخرى. فالذهن يتمثل حالات وأشياء، إحساسات وأفكار.

٤-يمكن للفكر استخراج تصورات ثابتة من واقع متحرك، ولكن لا يمكن تكوين حركة الواقع من ثبات التصورات. الخلاف بين المذاهب لأسباب عملية أكثر منها نظرية.

٥-البراهين على نسبية المعرفة لها عيب رئيسى فإنها تفترض مثل القطعية التى تنقدها أن كل معرفة لابد أن تبدأ بالضرورة من التصورات بحدودها المغلقة للوصول إلى الواقع السيال. وهذا عيب النظريات المثالية والنقدية ومذهب الشك.

٦- التفلسف هو قلب الاتجاه العادى لعمل الفكر، والبحث عن تصورات كيفية تواكب الواقع المتغير. هذه هى الفلسفة الارتقائية الطبيعية وليست الفلسفة الثابتة المصطنعة.

٧-موضوعات الميتافيزيقا الاختلافات والتكاملات الكيفية. وعيب الرياضيات الحديثة التعامل مع أشياء اكتملت، وهى فى طريق الاكتمال، بهدف التحقق العملى، والفلسفة لا شأن لها به. لا تنطبق الرياضيات إلا على الكميات وليس الكيفيات فى حالة النشوء.

الرياضيات الشاملة مجرد سراب الفلسفة الحديثة وقع فيه ليبنتز وهوسرل.

٨-المعرفة النسبية هى المعرفة الرمزية بتصورات مسبقة، موجوده سلفاً من الثابت إلى المتحرك، وليست المعرفة الحديثة التى تقبع فى المتحرك، وتتبنى الحياة بما فى ذلك حياة الأشياء. وهو الحدس القادر على الوصول إلى المطلق، ولا شأن له بطرق التعبير أو التطبيق والعادات. يؤسس العلم من أجل العلم. ويمكن تطبيقه فى العلم والميتافيزيقا على حد سواء. وتتواصل الحدوس فيما بينهم كما يتواصل موضوعها.

٩-هناك إذن طريقتان لمعرفة الأشياء، أن يكون للعلوم المختلفة جذور فى الميتافيزيقا وهو موقف القدماء. فالعمل ضعف التأمل، والديمومة صورة خادعة وحركة لخلود لا يتحرك. النفس سقوط للفكرة وهى فلسفة أفلاطون وأفلوطين، فى الثابت أكثر مما فى المتحرك، والانتقال من الثابت إلى المتحرك عن طريق التصغير. والعكس هو الحقيقة، فى المتحرك أكثر مما فى الثابت، والانتقال من الثابت إلى المتحرك عن طريق التكبير[١].

والعلم الحديث ابتداء من جاليليو درس الحركة من أعلى إلى أدنى كما وضح فى مفهوم الجاذبية عند نيوتن دون تحليل مفهوم الأعلى والأدنى كما فعل أرسطو فى تحليله الحركة. ويخلط العلم الوضعى بين الطبيعى والصناعى، بين معطيات الحدس المباشر وعمل التحليل الضخم الذى يقوم به الذهن خارج

---

(١) Ibid., p. 211-9.

الحدس وحوله مما أدى إلى افتراض نسبية المعرفة. وهو مجرد إدعاء ينطبق على التحليل وليس على الحدس[1].

كيف كان أساطين الفلسفة الحديثة ميتافيزيقيين مجددين للعلم على غير وعى بالتواصل الحركى للواقع؟ كيف نسوا الديمومة العيانية؟ لماذا الاستمرار فى استعارة لغة أفلاطون ونموذج نظرية المثل، والتأكيد على عقلانية سهلة، والنفس خلقه فى الحياة، بل واعتبار النفس فوق الفكرة فى الفلسفة الحديثة؟ ثم سار العلم الحديث فى اتجاه معاكس لاتجاه الفلسفة القديمة. وأحاط نفسه بمجموعة من الرموز من اختراعات الذهن تم نقلها من العلم إلى الميتافيزيقا، وأصبح العلماء ميتافيزيقيين والميتافيزيقيين علماء. ليس العلم الحديث واحداً ولا بسيطاً بالرغم من قيامة على أفكار واضحة ولكنه فقد الاتصال بالواقع المباشر. أما أرسطو فقد وضع المنطق فى الأشياء. وكان هذا هو اكتشافه وهو أفضل من اكتشاف المحدثين.

وقد بدأ كانط هذا الخطأ عندما دفع الميتافيزيقا والعلم إلى حدهما الأقصى فى الرمزية بالحدس العقلى. فالعلم نسبى، والميتافيزيقا مصطنعة. ثم تحول العلم والميتافيزيقا من الفلسفة النقدية إلى مذاهب قطعية عوداً إلى الأفلاطونية ونظرية المثل فى المعبد اليونانى بفعل العقل والتمثل التصورى والأفكار الواضحة. "نقد العقل الخالص" نوع من الرياضيات الشاملة أو الأفلاطونية أو النسق العقلى أو الانسجام المسبق. وبذلك استحالت الميتافيزيقا. انتهى "نقد العقل الخالص" إلى أن الأفلاطونية غير شرعية إذا كانت المثل أشياء، وشرعية إذا كانت المثل علاقات واختزال المثال الجاهز من السماء إلى الأرض. وهو الأساس المشترك للطبيعة.

---

(١) Ibid., pp. 217-19.

يقوم "نقد العقل الخالص" على مصادرة أن العقل عاجز عن إدراك أى شيء إلا الأفلاطونية أى حسب كل تجربة ممكنة فى قوالب مسبقة. ومع ذلك قضى كانط على النقد بنقائض العقل. ومن ثم انتهت الميتافيزيقا الحديثة والعلم الحديث كما بدأ معاً[1]. الفلسفة النقدية نموذج للرؤية الخارجية على عكس هوسرل الى أعاد بناءه على مستوى الشعور دون رفضه والبحث عن بديل له فى الحدس كما فعل برجسون، ماتت الميتافيزيقا عند كانط. وتجسدت فى دعاوى ودعاوى مضادة. وقد كانت من قبل حية عند الفلاسفة، بل إن اختلافهم كان يكشف عن أصل مشترك.

ليس الحدس سراً بل هى ملكة طبيعية موجودة لدى كل إنسان، وبالرغم من أن العلم الحديث قد أمات العلم إلا أن الحدس الميتافيزيقى قادر على تركيب المعرفة، ليس للميتافيزيقا أى علاقة مع تعميم التجربة. ومع ذلك، يمكن اعتبارها التجربة الشاملة.

**٣- مقدمة (الجزء الأول). نحو الحقيقة، الحركة التراجعية للحقيقى**[2]. تنمو الحقيقة كما تنمو الكائنات الحية من الأميبه إلى الإنسان وكما يتطور الوحى من أول الأنبياء إلى آخر الأنبياء. كل مرحلة سابقة تصب فى المرحلة اللاحقة. وكل مرحلة لاحقة تتراءى بدورها فى المرحلة السابقة. تتقدم الحقيقة إلى الأمام، وتتراجع إلى الوراء. وليست الحقيقة ثابتة. يكتمل أفلاطون فى كانط، وكانط فى هيجل. ويتراءى برجسون فى هرقليطس وأوغسطين ومين دى بيران ووليم جيمس وهويتهد ورافيسون.

---

(١) Ibid., pp. 219-27.

(٢) Introduction (Premiére partie), Croissnce de la Vérité. Mouvement, rétrograde du vrai; PM., pp,1-23. الدقة Précision.

وأهم ما تحتاجه الفلسفة هى الدقة. وتعنى الدقة القد على حسب الواقع، لا أكثر كما هو الحال فى المثالية، ولا أقل كما هو الحال فى الواقعية. إذن، تحتاج المذاهب الفلسفية إلى أن تقد طبقاً للواقع. لذلك يُوجه هذا الجزء الأول من المقدمة ضد المذهبين الشائعين المثالية كما يمثلها كانط، والواقعية كما يمثلها سبنسر وكومت[1].

وقد وقع برجسون فى شبابه فى غواية الفيلسوف الآلى سبنسر بعد قراءة كتابه "المبادىء الأولى" بالرغم من غموض عمومياته وإسقاط مفهوم الزمان كما فعل زينون الإيلى من الحساب. فالزمان الفعلى يند عن الرياضة وعن تجاور الأجزاء وقياسه عن طريق مسار المتحرك فى خط مستقيم مع أن الخط ثابت وجاهز من قبل. الزمان هو الشعور المتحرك، الزمان الداخلى الذى لا ينقسم. والحياة الداخلية تيار متصل وليس ارتباطاً بين الظواهر وتداعى المعانى[2]. تند الحياة الداخلية عن قوانين الارتباط وتداعى المعانى. صحيح أن فلسفة سبنسر فلسفة تطورية من أجل إدراك الواقع فى حركة وتقدمه ونضجه الداخلى. تستبعد الديمومة. وتكتفى بالتجاوز والتتابع. وتعبر الديمومة عن نفسها بالموسيقى. وتدرك بالحدس وليس باللغة وعادات التعبير وأساليبه الشائعة. ليست مهمة العلم تعميم الديمومة وتغطيتها وحجبها والتستر عليها سواء فيما يتعلق بالحركة أو بالتغير. ليست الحركة مجرد سلسلة من المواضع بل هى موضع واحد. ولا تنقسم إلى لحظات. لحظات الزمان ومواضع المتحرك مجرد لحظات وضعها

---

(١) الكانطية (٢)، كانطى، كانط(١)، سبنسر (٣) سبنسرى، كومت(١)، ومن السوفطائيين زينون(١)، ومن الأدباء والشعراء والفلاسفة الرومانسيين: روسو، شاتوبريان، ألفرد دى فينى، هوجو(١).

(٢) Ibid., pp, 1-4.

الذهن على تواصل الحركة والديمومة[1].

لذلك من الضرورى استعادة الزمان الفعلى، واكتشاف تيار الشعور بعيداً عن حجج زينون الإيلى والمفاهيم المصطنعة للعلم الحديث. حينئذ تصبح الميتافيزيقا التجربة نفسها. وتظهر الديمومة كخلق مستمر، وانبثاق لا ينقطع من الجدة. الديمومة حركة فعلية وليست حركة متوهمة مثل الحركة السينماتوجرافية التى تقوم على وهم الحركة عن طريق السرعة وملاحقة الصور بعضها بالبعض الآخر فى الزمان وبقائها فى الذاكرة. يتراءى الحاضر فى الماضى فى التعرف على الأشياء وكأنه تمت رؤيتها من قبل. يحيل برجسون إلى أوغسطين، وكانط إلى أفلاطون، وهيجل إلى أرسطو. وهى حقيقة شعورية وإن كان وهما موضوعياً. وتقوم علوم القراءة والتأويل على هذا التراءى للحاضر فى الماضى. وفى تاريخ النبوة محمد هو آدم وإبراهيم وموسى وعيسى. كل الأنبياء صور متكررة منه. وهو ثمرة الشجرة بعد أن اكتملت فى التاريخ. فالجديد قديم، والحاضر ماضى. وكل حقيقة وقتية هى حقيقة خالدة. فالحقيقة ليست ثابتة فى مكانها، جاهزة فى إدراك الحاضر بل هى ممتدة فى الماضى كبذور وفى المستقبل كتحقق. المنطق تراجعى. والآن بعد اكتشاف تيار الشعور، يعاد اكتشاف الرومانسية فى القرن السابع عشر عند روسو وشاتوبريان وفينيى، وهوجو. وهو منطق الضمنى والممكن وليس منطق العادات[2].

وينبثق من الديمومة اختيار حر لا يمكن التنبؤ بمساره. هى أشبة باللحن الداخلى. هناك فرق بين التطور وفك "الرول" حيث تتجاور فيه الأجزاء سواء

---

(١) Ibid., pp, 4-73.

(٢) Ibid., pp. 14-9.

كان الفك سريعاً أم بطيئاً. الديمومة أشبه بالمنطاد الذى يشتد وتخى، يمتد وينكمش. وكلما كان الشعور فى حالة توتر كان فى حالة خلق وإبداع[١].

هناك معطيات مباشرة كما عرض برجسون من قبل فى رسالته الأولى "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" (١٨٨٩) [٢]. لا فرق إذاً بين كانط وسبنسر، بين العقلية والوضعية، بين القطعية واللاأدرية، بين الكانطية ومذهب الارتباط أو تداعى المعانى فى تجاهل الديمومة. فى حين أن وظيفة العقل فى الإبقاء على بعض العادات من أجل الحياة العملية. لذلك يستعمل تصورات مصطنعة وأخرى زائفة من أجل إحداث الأثر المطلوب[٣].

**٤- المقدمة (الجزء الثانى)، فى وضع المشاكل[٤].**

وواضح من العنوان الطابع المنهجى للموضوع. فكيفية السؤال تتضمن نصف الإجابة خشية من وضع السؤال وضعاً خاطئاً منذ البداية فتخطىء الإجابة عليه. وقد كتبت هذه المقدمة أساساً ضد العقلانيين الذين يضعون المسائل الفلسفية وضعاً خاطئاً. لذلك كثرت الإحالة إلى الكانطية والأرسطية واسبينوزا وشلنج وشوبنهور والأفلاطونية، وفشته، وهيجل وغيرهم من العقلانيين الخلص

---

(١) Ibid., pp. 7-14. فك الرول Déroulement.

(٢) Ibid., 19-21.

(٣) Ibid., 21-23.

(٤) Ibid., pp. 25-98. انتهت كتابة النص عام ١٩٢٢. أضيفت إليها فقط بعض الصفحات الخاصة بالنظريات الفيزيائية المعاصرة. ولم تكن نتائج "منبعا الأخلاق والدين" قد تم الحصول عليها بعد عام ١٩٣٢. Ibid., p. 98.

أو الحدسيين[1]. أما فلاسفة العلم فقد ذكروا فقط فى الهوامش[2].

الديمومة هو الموضوع الرئيسى فى الفلسفة. والحدس هو المنهج الملائم لها. وهناك فلاسفة للحدس مثل شلنج وشوبنهور، غير العقلانيين الخلص مثل ديكارت واسبينوزا. عارضوا الحدس بالعقل. فالحدس هو البحث المباشر عن الخالد. والعقل المجرد الذى يعتمد على التصورات غير قادر على الإدراك مثل الحدس. الحدس ملكة فوق العقل. يخرج من الزمان كديمومة. إذ لا يدرك العقل إلا الزمان المكانى. الزمانى الاعتيادى الشائع فى الحياة اليومية. فى حين يدرك الحدس الديمومة فى حركة الواقع وليس فى ثوابت الفكر: الجوهر، الذات، المثال، الإرادة...الخ. ليست الفلسفة استنباطاً من مقولات سابقة ولا عن تصورات مصطنعة بل هو إدراك حدسى لتموجات الواقع. العالم واحد بالتجربة وليس كمصادرة مبنية يفرضها العقل. الحدس إدراك للديمومة فى تواصلها من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل. إنها رؤية الروح بالروح بعيداً عن اللغة، ألفاظ ومقولات، وبالدخول فى الحياة الباطنية. يعنى الحدس الوعى المباشر، ورؤية الشىء بالاتحاد به ضد المنطق الصارم والمعادلات الرياضية. إنه التعاطف مع الموضوع والاتحاد معه لإدراك ماهيته. إنه الحدس الحيوى وليس فهم الصورى، رؤية العيانى وليس تصور المجرد. موضوع العلم هو الآلى الخالص الثابت الكمى الرياضى دون مشاركة روحية. العلم يتناول المجرد

---

(١) الكانطية (٣)، كانطى(١)، أرسطو(٣)، الأرسطية(١)، أفلاطون، الأفلاطونية(٢)، الأفلاطونية الجديدة (١)، اسبينوزا، شلنج، شوبنهور (٢)، فشته، هيجل(١)، بركلى، فرويد(١).

(٢) اينشتين(٢)، اينشتينى(١)، نيوتونى، نيوتن، باشلار، هوايتهد، لانجفين(١)، ومن الفلاسفة ومؤرخى الفلسفة: ديكارت، هوفدنج، فال(١).

والمتواضع والمتفق عليه وما يمكن بناؤه وقسمته بالذهن والحس المشترك والتعبير عنه باللغة. يتجه الحدس نحو الديمومة وليس اللحظى، نحو المتحرك وليس الثابت[١].

صحيح أن الوضوح والتميز من شروط صحة الفكرة ولكنها الفكرة الجديدة وليست الفكرة القديمة فى نظام جديد. هى الفكرة الجديدة تماماً والبسيطة للغاية لأنها خالية من العناصر والتى يمكن فهمها بلا جهد. تضىء بذاتها على ذاتها وعلى غيرها. لا تحتاج إلى لغة أو تصورات أو تقطيع وتحليل وتجزئة ولا إلى تعميم وإطلاق. الفكرة الواضحة الجديدة فعل حر للوعى خارج نطاق الحتمية العقلية والعلم واللغة والحس المشترك والذهن. هى فكرة الفيلسوف وليس فكرة الكتبة والفريسيين[٢].

موضوع الميتافيزيقا هو الروح ومنهج خاص هو الحدس. ومن ثم تتميز الميتافيزيقا عن العلم، والحدس عن العقل. ولكل منهما قيمته المتساوية. يقوم العلم الوضعى على الملاحظة الحسية. ثم يجردها ويعممها ويصدر أحكاما، ويقيم استدلالات بالعقل. ويستعمل الرياضيات الخالصة فى الميكانيكا ثم الفيزيقا ثم الكيمياء وأخيراً فى البيولوجيا. يتعامل مع المادة المصمتة، ويربط الظواهر الفيزيقية بالكيميائية والحيوية. وتبدأ المشكلة إذا ما تناول العلم الطبيعى الروح. وهو موضوع غامض وليس فى متناول اليد، صورة مجازية وصياغات متشابهة[٣]. واستدلالاته قد تند عن العقل الذى مازال مرتبطاً بالحس. وقبل التأمل هناك الحياة. والحياة تسبق التأمل. يتجاوز العلم موضوعه دون أن يغير

---

(١) Ibid., pp. 25-31.

(٢) Ibid., pp. 31-3.

(٣) Ibid., pp. 33-47.

اتجاهه. والعقل متكيف مع المادة. والآلة من نفس نوع الموضوع. وبينهما علاقة تكوين وبناء وإعادة بناء. بينهما معايير النسق والتطابق. بدأ ذلك عند اليونان من قبل، واستمر فى العصور الحديثة. المادة والعقل من نفس النوع. لهما نفس الخصائص، الثبات والقسمة والنسق. وكلاهما قاصران عن الوصول إلى المطلق. يتعرضان للخطأ، والوقوع فى الوهم، وتشويه الصور، والأبنية الخاطئة، فى حين أن الروح مطاطى غير مستقر. ومن ثم المادة والروح نقيضان كما أن العلم والميتافيزيقا ضدان. ولا يمكن إقامة ميتافيزيقيا للمادة أو علم للروح. لكل علم ميدانه وموضوعه ومنهجه ومستواه، الخارج والداخل، وأفقه، المنفعة والحكمة. المادة تنحرف بالروح كما أن الروح تنحرف بالمادة إذا تم الخلط بينها. ترى الروح الروح، وتعقل المادة المادة. وقد يعبر الحدس عن نفسه بالعقل. ويستعمل اللغة والأساليب المجردة أو الطرق البيانية من استعارة ومجاز ومقارنة ولغة مجردة ومعادلات.

والخلاف بين العلم والميتافيزيقا ليس فقط خلافاً فى الموضوع والمنهج بل هو أيضاً خلاف فى القيمة. إذ يبحث الأول عن النسبى، فى حين يبحث الثانى عن المطلق. يبدأ كلاهما بالتجربة نحو الأدنى أو نحو الأعلى. الأول يتعامل مع تصورات جاهزة، ويتعامل الثانى مع حقائق مازالت فى سبيل النمو وطور التكوين. لذلك يحتاج العلم الحديث إلى إصلاح يرفع مستوى العلم. كما تحتاج الميتافيزيقا المعاصرة إلى إصلاح بإنزال مستواهما الأفلاطونى الكانطى العقلى المجرد إلى مستوى عالم الحياة.

خطورة المذاهب الفلسفية تغليف الواقع أكثر من تعريته، وتغطيته أكثر من كشفة، وإظلامه أكثر من إنارته. فهى تتبع منهج العلم فى الميتافيزيقا، وطريقة

استنباط الحقائق بدلا من البدء بالتجربة. مالت نحو الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة بل وأحد جوانب الأرسطية، وهو الجانب المنطقى. واستمر ذلك فى العلم الحديث فى تحويل الطبيعة إلى رياضة، والكيف إلى كم، والنفس إلى بدن، والدين إلى اجتماع، والأخلاق إلى عادات شعبية. ظن العلم الحديث أن أكبر ضمان له فى الفكرة خارج التجربة. بل إن الله نفسه يستنبط من الفكر. هو المحرك الأول والعلة الأولى ومثال المثل كما كان عند قدماء اليونان. هو الله الثابت وليس المتحرك. {كل من عليها فن، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، و {كل شيء هالك إلا وجه} وليس {كل يوم هو فى شأن}. خلط العلم الحديث بين الفكرة الشارحة والفكرة الفعالة. وآثر التمثيل الذى يقوم على المواضعة والعلامات مستبعداً الشيء فى ذاته عند كانط، والجوهر عند اسبينوزا والأنا عند فشته، والمطلق عند شلنج، والتصور أو الفكرة عند هيجل أو الإرادة عند شوبنهور. الخطأ الرئيسى فى المذاهب الفلسفية أنها تدعى أنها تدلنا على المطلق بمجرد تسميته. والتصور فارغ بلا مضمون .والحقيقة أن الوجود لا يعطى إلا من خلال التجربة. والتجربة رؤية واتصال مباشر. كما أنها إدراك حسى. التجربة حدس أشبه بالطريق الصوفى. والفلسفة ترفع الفيلسوف إلى ما هو أسمى من الوضع الإنسانى[1].

والتصورات فى الكلمات. وهى التى تسمى الفكرة العامة. التصورات ألفاظ. لها وجود فى اللسان وليس فى الأذهان ولا فى الأعيان كما يفصّل المناطقة المسلمون. الدوافع عملية ومقتضيات اجتماعية. فاللغة أداة الفعل الجماعى. أما الفلسفة فإنها تبحث عن المسألة ثم تجد لها حلاً، ليس على سبيل الكشف بل على

---

(١) Ibid., pp. 47-51.

سبيل الاختراع[1].

وهذه هى نشأة الأفكار العامة وقيمتها فى تاريخ الفلسفة[2]. هى تمثل يتضمن عدداً لا نهائياً من أشياء تندرج تحت هذا الاسم. فكل الكلمات هى أفكار عامة. السؤال هو كيف يتم ذلك، وبأى تمثل، ولصالح أى بنية للواقع؟ فمثلاً فى علم النفس تعرف أولاً، الدلالة الحية ومظاهر الحياة الأولى مثل الذاكرة والخيال والتصور والإدراك، والتعميم. الفكرة العامة هى نسيج الكائن الحى بالرغم من التجريد والعمومية. تبدأ بالتصور والإدراك طبقاً للغرائز والحاجات. ثم يبدأ التعميم بناء على أوجه التشابه بين الأشياء. وهو ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، التعامل مع الأجناس والأنواع، وليس فقط مع الأفراد. وهو ما قاله علماء الكلام فى علم الله بالكليات من أجل سرعة العمل والتعامل. ويدخل التقليد كأحد العوامل فى التعميم، كما تدخل اللغة والتسمية، وإطلاق اسمه واحد على مسميات عديدة. وأخيرا تدخل العادات الحركية والانتقال من ميدان العمل إلى ميدان الفكر. ثم تصبح الأفكار العامة نماذج لبعضها البعض لأن الفرد يعيش فى مجتمع. وبتداخل الإفراد تتداخل النماذج من أجل إيجاد لغة مشتركة فى الحوار بين الأفراد. ووجود وسائط للتفاهم هى الأفكار العامة، الموضوعية الداخلة فى نسيج الأشياء .

وهناك ثلاثة أنواع من التشابه.

الأول المجموعة البيولوجية. فالحياة تعمل وكأنها تتضمن أفكاراً عامة. وهى الأجناس والأنواع التى تتفرع بدورها إلى فرعين، وتنقسم إلى قسمين.

---

(١) Ibid., pp. 51-3.

(٢) Ibid., pp. 53-65.

وتعنى الغائية إعطاء المادة الحية بعض الخصائص.

الثانى من المادة الحية إلى المادة الصلبة، من العضوى إلى اللاعضوى حيث توجد أنواع فعلية من نوع آخر، صفات مثل الألوان والمذوقات والمسموعات إذا تم الانتقال إلى عالم الأشياء. وهناك الأوزان والحرارة. ويؤدى هذا التشابه إلى التقارب، والتقارب إلى التماثل. ويتم الصعود فى الأجناس والأنواع من الكيميائى إلى الفيزيقى، ومن الفيزيقى إلى الرياضى. وينتهى المنطق البسيط إلى أن التشابه تماثل جزئى، والتماثل تشابه كامل. التماثل هندسى، والتشابه حيوى. يقوم الأول على المقياس، والثانى على الفن. وتكرار المحسوسات يحيلها إلى تماثل. وتتدخل الحرية الإنسانية أحياناً لتكسر رتابة هذا التكرار، وتجعله يتفرع إلى فرعين مختلفين. فالحياة تسير طبقاً لقانون الهوية والاختلاف، جمع المتشابهين وتفريق المختلفين. كل منهما نظام من المقدار[1]. ويتحدد الاختيار بالقدرة على الفعل. وتطابق الأفكار العامة خصائص المادة وأفعالها بفضل الرياضيات الحالة فى الأشياء، وتقابل الهندسى مع الحيوى، والحيوى مع التشابه والتماثل.

والثالث الأفكار العامة عن طريق التأمل والفعل الإنسانى. فالإنسان صانع بالأصالة. والعقل كقدرة على الاختراع قادر على ذلك، بناء على نموذج مدرك أو متخيل. وتقوم كل المدنية على عدد معين من الأفكار العامة تُعرف مضامينها وقيمتها. وهو ما يؤدى إلى الألوهية سواء فى الفلسفة القديمة أو الحديثة. ولا تنطبق الصناعة فقط بل على المادة بل على المجموعات الثلاث من الأفكار العامة العضوية واللاعضوية والإنسانية لتحقيق ثلاثة أهداف: تسهيل شئون

---

(١) نظام من المقدار Ordre de Grandeur.

الحياة الاجتماعية أو لتسهيل التأمل الخالص أو من أجل المتعة. وعلاقة الفرد بمجتمع هى علاقة حوار وفعل، مشافهة وممارسة، حديث وإنجاز.

وأحياناً يستبعد الإنسان الفكر التصورى أو على الأقل يحاول إصلاحه بالفكر الحدسى، والابتعاد من المنظور الاجتماعى، والتحول من الإنسانى إلى الإلهى. فالدافع الحيوى هو نفسه الذى يولد الأفكار العامة والذى يدفع نحو الذروة فى الإلهى.

وخطورة الأفكار العامة الوقوع فى أشباح المشاكل أو المشاكل الزائفة[1]. ومنها مشكلة "أصل الوجود" المادة أو الروح أو الله. وهى مشكلة النظام بوجه عام. وحلها الأسهل العلة الأولى.

ومن المشاكل الزائفة الفوضى والعدم مع أن الفوضى هو غياب النظام المتوقع ، والعدم غياب الوجود المتوقع. الفوضى نظام سلبى، والعدم وجود سلبى، فهما لفظان مفرغان من المعنى بسبب التأمل وضرورات الحياة العملية. هى مشاكل تعطل التقدم إلى الأمام. ومن هنا أتت أهمية الشك القديم والنقد الحديث خاصة "نقد العقل الخالص" عند كانط. فالميتافيزيقا مستحيلة إن لم تبدأ بالتجربة.

هذا هو خطأ العلم والعقل[2]، وحرصاً على تقدم العلم والعقل تُبين حدودهما معا حتى يمكن بعد ذلك معرفة إمكانية الوصول إلى المطلق بنفس الوسائل أم بوسائل أخرى. وكما أن المصطنع لا يعرف إلا بالمصطنع فإن الطبيعى لا يعرف إلا بالطبيعى. ليس الفيلسوف مطالباً بوضع كل الفلسفة، كالأستاذ بل

---

(١) Ibid., pp. 65-70.

(٢) Ibid., pp. 70-3 .

بالاقتراب منها كالتلميذ.

كما تمنع العادات العقلية من التفلسف. وذلك مثل تصور الأشياء ثابتة. مسميات لأسماء، يمكن تصورها بالعقل كما يفعل أرسطو من أجل مقتضيات اجتماعية، وتلبية حاجات عملية. وهو ما يقتضى الانقلاب على الذات وعادات التفكير كما حاول كانط فى النقائض التى هى من صنع الإنسان حتى يتحرر الإنسان منها، وينطلق إلى رحاب أوسع واكتشاف منهج آخر للحياة الباطنية بعيداً عن التجاور والجواهر ليبحث عن الديمومة الخالصة كاللحن الذى يدخل فيه الماضى فى الحاضر(١).

تستطيع التجربة المباشرة القضاء على المشاكل الزائفة والعادات العقلية والتمثلات الذهنية والصور الخيالية. تلجأ التجربة المباشرة إلى حركة الواقع وتطور الأشياء بعيداً عن الشذرات كما تقتضيه ضرورات الحياة العملية(٢). وتنبثق الحرية من التجربة المباشرة متجاوزة كل البراهين العقلية على الاختيار الحر أو الحرية الطبيعية. ولا تستطيع أى نظرية أن تقاوم الواقع. ولا تستطيع أى نظرية فزيولوجية أو نفسية أو سيكوفيزيقية الصلح بين النفس والبدن، وأن تثبت أو تنفى الحرية كتجربة مباشرة إلا عن طريق الانتباه إلى الحياة واللجوء إلى التجربة الباطنة. ولا تستطيع الوظائف العقلية أو الذاكرة أو تداعى الأفكار أو التجربة أو التعميم أو التفسير أو حتى الانتباه أن يصل إلى شىء لأنها كلها مرتبطة بالسيكوفيزيقا.

وللقضاء على المشاكل الزائفة يتم التدقيق فيها وإحكامها وضبطها مثل

---

(١) . Ibid., pp, 28-81

(٢) .Ibid., pp 26-81

النظام الميتافيزيقى القائم على فهم الروح للمادة، وينهى الصراع التقليدى بين المثالية والواقعية، بين الذات والموضوع أو بين الروح والمادة، وتنتهى مشكلة بركلى كما أنهاها "المادة والذاكرة" وكل الخلاف بين الكانطيين وأعداء الكانطيين ومن ثم من الضرورى إعادة تحديد العلاقة بين الذات والموضوع(١).

ونقد العلم يؤدى أيضاً إلى نقد العقل. ويعنى نقد العقلانية وممارسة النفى ونقد اللفظيات التى تشوه جزءاً من المعرفة. العقل هو طريقة التفكير من أجل توجيه السلوك، والسيطرة على الطبيعة، وسهولة التحرك فى المكان غير المنظم. يتجه إلى الصنع كما يتجلى فى فن الميكانيكا، وبلغة تعلن عن العلم. فى حين أن العقلية البدائية اعتقاد وتراث. يتجه التطور الطبيعى للعقل نحو العلم والتقنية وما يثيرانه من رياضيات مازالت غامضة. فالعلم والفن آليتان للمادة ولكنهما ليسا طريقان للمطلق؛ فى حين تلجأ الميتافيزيقا إلى الحدس. ووجود علوم الحياة الأخلاقية والاجتماعية والعضوية والعقلية والحدسية يتحول الشعور إلى ميدان العلم دقيق(٢).

والأهم من ذلك كله هو "النقاش" أو الحوار حتى وإن لم يكن مضبوطاً. وهو منبع النقد. النقاش هو تبادل الأفكار عن طريق اللغة والكلمات وعادات الكلام وأساليب التعامل الاجتماعى. فالإنسان مدنى بالطبع كالنملة فى مجتمع النمل مع فرق أن النملة تمتلك وسائل جاهزة للوصول إلى غرضها فى حين أن الإنسان يخلق وسائله وطرقه. وقد أتقن اليونان منطق اللغة وأساليب الكلام فى البلاغة والخطابة والنحو، الثلاثى فى الفنون الحرة السبعة. وسمى الحوار. ويعنى

---

(١) Ibid., pp. 84-6.

(٢) Ibid., pp.84-6.

اشتقاقاً الحديث المزدوج δaλEγεíν. وهو الفن الذى أتقنه أفلاطون. الإنسان التخصصى هو الذى يتعامل مع العلم والعقل، والإنسان الذكى أو العاقل هو الذى يحسن الكلام. الإنسان هو الإنسان العامل. ومن تفكيره على العمل يصبح الإنسان الحكيم ثم يصبح الإنسان المتكلم من التفكير على الكلام. فالحقيقة جزء من الحراك الاجتماعى[١].

التوتر والتركيز كلمات تعبر عن منهج الروح. فلكل مشكلة جديدة جهد جديد. وهو الفهم الذى اتبعه برجسون فى "مؤلفاته التطبيقية السابقة" "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان"، المادة أو الذاكرة"، "التطور الخالق". مهمة الفلسفة إعادة وضع المشاكل وضعا صحيحاً ثم رؤية موضوعاتها بالحدس. وتلك مهمة الكتاب الفلسفى[٢].

**٥- الحدس الفلسفى[٣].**

الحدس الفلسفى هو الروح الفلسفى. والروح الفلسفى هو كل الفلسفة. والفلسفة بلا حدس مجرد نظريات فلسفية. والميتافيزيقا هذه اللحظة تريد أن تبسط نفسها وأن تقترب أكثر من الحياة. ولا شىء جديد فى ذلك. بل حاوله كثير من الفلاسفة من قبل. وتجميع الحروف أى المذاهب الفلسفية قد تذهب الروح. لقد غرق تاريخ الفلسفة فى رصد المذاهب الفلسفية الكاملة وإحكام أنساقها كأبنية شامخة سرعان ما تتهاوى على معاول التجربة. والمذاهب نفسها تيارات فلسفية عاش الفيلسوف بينها. ولها رائد أو مؤسس. وبدلاً من الالتفاف حول أفكار

---

(١) Ibid., pp. 97-86. الإنسان العامل Homo Faber، الإنسان الحكيم Homo Sapiens الإنسان المتكلم Homo Loqubax.

(٢) Ibid., pp. 97-8.

(٣) Pm., pp. 117-42، وهى محاضرة ألقيت فى مؤتمر الفلسفة فى بولونيا ١٩١١/٤/١٠.

الفيلسوف يمكن النفاذ إليها[1]. الحدس الفلسفى بسيط على عكس المذاهب الفلسفية المعقدة والتى يمكن النفاذ إليها[2]. ومعرفة الحدس الأول الذى قامت عليه قبل أن تغلفه التمثلات والتصورات والتراكيب العقلية.

ويأخذ الحدس صورة متوسطة بين بساطة الحدس العيانى والتعقيد المجرد الذى يعبر عنها. وهى صورة مراوغة هاربة تتراءى إلى الذهن دون أن يدركها. وما يميز هذه الصورة أولاً هى قدرتها على النفى مثل شيطان سقراط. وهو ما يهمس فى أذن الفيلسوف بالاستحالة بعدما اعتقد أن الحل ممكن وواقعى ويقينى. وتأتى الاستحالة من الخلط. وتتنوع طرق الإثبات ولكن النفى واحد. وهو ما سماه علماء الكلام اللاهوت السلبى الوحيد المكن فى نفى ما يستحيل على الله فى حين يتعدد اللاهوت الإيجابى فى إثبات ما يجب له[3].

وتأتى الصورة المتوسطة لحل الخلاف بين التيارات الفلسفية المتعارضة فى كل عصر[4]. فالفيلسوف بهذا المعنى ابن عصره فى تصوره للعلم والفلسفة وفى الصراع بين القديم والجديد. فالحديث يكرر القديم، تطويراً له ومتطوراً منه. الفلسفة كائن معنوى أكثر منها كائنا تجميعيا. ولا تقول إلا نفس الشىء بلغات متعددة وبطرق مختلفة وأساليب متباينة. الحدس واحد لا يتغير، فى حين تتعدد تطبيقاته. الحدس رؤية أكثر منه تركيب مذهب، واقع وحركة وليس بناء معمارياً. العصر مجرد مظهر، والحدس حقيقة[5].

---

(١) Ibid., pp. 117-9.

(٢) Ibid., pp.119.

(٣) Ibid., pp. 119-21 . صورة متوسطة Image Médiátrice

(٤) Ibid., pp. 121-3.

(٥) Ibid., pp. 123-4 .

وقد عاش برجسون هذه التجربة عندما اختير أستاذا فى الكوليج دى فرانس وقام بتدريس بركلى واسبينوزا لمدة طويلة مع التمييز بين العرض والجوهر، والصورة والمضمون فى المذهب والعمل مثل "كتاب الأخلاق" لاسبينوزا ومقولاته الرئيسية: الجوهر، الصفة، الفكر، الامتداد، بالإضافة إلى مقالات ثقيلة أخرى من التراث الديكارتى والأرسطى. مع أن الحدس بسيط، الإحساس بالاتحاد بين فعل الإدراك الكامل والفعل الإلهى ذاته الذى منه تتولد الأفعال. وهى فكرة الإسكندرانيين أى أفلوطين ومدرسته فى الفيض. يخرج كل شىء من الألوهية ويعود كل شىء إليها. فالفلسفة فعلان، ذهاب وإياب أو بتعبير اللاهوت سقوط وخلاص(١).

ويقال نفس الشىء بالنسبة لبركلى الذى يمكن تلخيص فلسفته فى أربعة دعاوى: الأولى تعد نوعاً من المثالية انطلاقاً من نظرية الرؤية وخلاصتها أن المادة مجموعة من الأفكار وهى تشبه مذهب المناسبة عند مالبرانش وربما أيضاً عند ديكارت. والثانية أن الأفكار المجردة ترد إلى كلمات كما هو الحال فى الإسمية. وهى من مشاكل العصر الوسيط قبل أن تصبح جزءاً من الفلسفة الحديثة عند هوبز. والثالثة الجمع بين الروحية والإرادية كما هو الحال عند دنزسكوت وديكارت. والرابعة التأليه وهو وضع وجود الله على اعتبار المادة وحدها. وهو ما يوجد فى اللاهوت(٢).

فلسفة بركلى، وهو أكثر الفلاسفة ذكراً فى نظرية الرؤية، تتكون إذن من ديكارت ولوك وهوبز، ضد القطعية الرياضية لأسقف فيلسوف أراد المصالحة

---

(١) Ibid., p. 125.

(٢) بركلى (٢)، ديكارت (٥)، الديكارتية (٢)، اسبينوزا (٥)، الاسبينوزية (١)، سقراط، الأفلاطونية الجديدة، هوبز، كانط(٢)، دنزسكوت، بيكون، لوك، مالبرانش(١).

بين العقل والإيمان (بوسويه) مع بعض صياغات الأفلاطونية الجديدة. وقع بركلى فى الإسمية والمثالية المجدبة مع إلغاء وجود الجسد إلا فى الذهن الإلهى. فالمادة مشاركة فى الامتداد مع التمثل. الوجود هو المظهر. والشىء مخزن للإمكانيات. المثالية والاسمية شىء واحد. المادة إلتقاء إرادتين، إرادة الإنسان وإرادة الله. يشارك الذهن الإنسانى والمادة، والعقل الإلهى فى نفس الوظيفة[١].

وفرق بين مقولات المذهب وروحه. فالمذهب كائن حى. والصورة المتوسطة مادة، ولكنها أيضاً روح. يدركها الحدس. وفى حالة بركلى هناك صورتان متوسطتان. المادة رقيقة شفافة بين الإنسان والله تكشف الله للإنسان، وتكشف الإنسان لله من خلال الرؤية. وهناك طريقتان للتعبير، التصور والصورة. التصور فارغ، والصورة مملوءة بالحياة. التصور كمى، والصورة كيفية[٢].

ليست علاقة المذهب الفلسفى بالمذاهب السابقة علاقة كمية، أثر ومتأثر، بل علاقة كيفية عن طريق روح المذهب أى مسار الفكر واستمراره من السابق إلى اللاحق أو انقطاعه.

الفلسفة هى العلم الشامل وليست حصيلة العلوم الجزئية التى عاصرها الفيلسوف الذى يبحث عن توحيد المعارف الإنسانية. ويمكن أن يكون لكل علم جزئى فلسفة. وهذا لا يغنى عن الرؤية الشاملة للعلم[٣]. ليست الفلسفة تركيباً من علوم بل ديمومة متصلة على مستوى الفكر والشعور. فالمادة والحياة فى داخل الشعور الحدس الفلسفى هو هذا الاتصال. الفلسفة هو الدافع. والعلم مجرد

---

(١) Ibid., pp. 125.

(٢) Ibid., pp. 129-36.

(٣) Ibid., pp. 136-9 .

تخارج بدافع من الأعماق. ولا يتجه الفيلسوف إلى الوحدة التى خرج منها[١].

والعلم عامل مساعد للفعل. ويهدف الفعل إلى تحقيق غاية. يبحث العالم عن المتكرر والثابت. ويحاول تطويع الطبيعة بل وخداعها أحياناً. وقد وضع بيكون قاعدة العلم من الطاعة "أجل القيادة". والفيلسوف لا يطيع ولا يأمر بل يحاول التعاطف. جوهر الفلسفة هو روح البساطة. التعقيد مصطنع، والبناء زائد، والتركيب ظاهرى. التفلسف فعل بسيط[٢]. الفلسفة تحيى، ومن ثم عليها أن تحرج من المدرسة إلى الحياة. التجربة علم ناشىء والعلم إدراك بالغ. والحركة سلسلة من المواضع. والتغير سلسلة من الكيفيات. والصيرورة سلسلة من الحالات. يتضمن الحدس مستويات من التوتر، والفلسفة مستويات من العمق الفلسفة لحن متصل لا تنقسم، ويدركها الحدس.

وقد أخطأ كانط فى اعتقاده أنه فى الإمكان تجاوز الشعور والوصول إلى المتعالى، فى حين أن الحقيقة فى الباطن تحت الأبنية الذهنية. الفلسفة كالفن بداية مستمرة أو كما أطلق عليها هوسرل بداية جذرية. يستطيع العلم أن يعدنا بالحياة الراضية أو حياة المتعة فى حين أن الفلسفة تعطينا السعادة[٣].

**٦-إدراك التغير[٤].**

يمكن إدراك التغير بالحدس المباشر وليس بالتصور العقلى. التغير موضوع

---

(١) Ibid., pp. 139-42.

(٢) Ibid., p. 143.

(٣) الحياة الراضية Bien – être، المتعة Plaisir، السعادة Ioie.

(٤) La Perception du Changement, Ibid., pp. 143-76. محاضرة ألقيت فى جامعة أكسفورد فى ٢٦/٢٧ مايو ١٩١١. وقد اشتهرت بتأويلات عديدة لنظرية المثل عند أفلاطون. وسادها تياران: العقلانية الكاملة، والبرجماتية.

للإدراك ولكنه لا يُرى. وهو موجود. إذ أن كل شيء يتغير. فالتغير هو قانون الأشياء. ومع ذلك يتدخل الاستدلال، ويتعامل مع التغير وكأنه غير موجود. ومن ثم، من الضرورى أولاً لإدراك التغير استبعاد كل الأحكام المسبقة المصطنعة التى أصدرها التأمل الفلسفى المجرد، وكذلك الأحكام التى تقوم على الاعتقاد الشائع والحس المشترك. التصور أسوء منهج إذا لم يسبقه الإدراك. دور الاستدلال هو ملأ فراغ الإدراك أو من أجل دفعه إلى حده الأقصى. ومما لا شك فيه أنه لا يمكن إنكار مدى الفائدة من الأفكار العامة المجردة. ولا يمكن إدراك حقيقة إلا إذا كانت واقعة أو تصور شيء إلا إذا كان مدركاً.

وعدم كفاية ملكات الإدراك أحد أسباب نشأة الفلسفة. ويدل على ذلك تاريخ الفلسفة نفسه. كانت أفكار اليونان القدماء قريبة من الحس مثل إدراك العناصر الأربعة. ثم حاول فلاسفة إيليا إنكار التغير والحركة عن طريق الحجج السوفسطائية التى تقوم على القسمة، وتحويل الكيف الحاكم. هذا النقص فى الإدراك الحسى هو الذى دفع الفلاسفة إلى تكملته بالتصورات المجردة، والنظريات المصطنعة، والمذاهب المركبة[1]. وإذا توقف الأمر على ذلك، الأفكار المجردة العامة والاستدلالات المصطنعة من ناحية والإدراك الحسى الساذج من ناحية أخرى تنتهى الفلسفة. ولا يبقى إلا فلسفات متعددة ومتضاربة خارجة عن الموضوع. ويتحول الموضوع من كيف إلى كم.

لذلك كان من الضرورى توسيع الإدراك خارج ميدان الرؤية الحسية إلى الانتباه المركز الواضح كما يفعل الفنان الذى يدرك ما لا يدركه الإنسان العادى، وكما يفعل الشاعر الذى يستوحى الواقع ويستلهم الطبيعة، وكما يفعل الرسام مثل

---

(١) Ibid., pp. 143-9.

كورو وتيرنر. يثبت الفن إذن أنه يمكن توسيع مجال الرؤية كما هو الحال عند الصوفى مع أن الصورة الشائعة عن الفنان أنه مثالى أو أنه تائه. إدراك الواقع فى حاجة إلى خطوة إلى الوراء حتى يتخلص الإدراك من ضرورات الحياة العملية وتقسيم الأشياء إلى وحدات صغيرة. ثم يتحول الإدراك عن الفنان من ضرورة الفعل إلى الإدراك من أجل الإدراك، لذة الإدراك، مستقلاً عن العمل[1].

المطلوب إذن هو قلب الانتباه أو ما يسميه هوسرل قلب النظرة، والتحول من الإدراك الخارجى إلى الإدراك الداخلى أى من الإحساس إلى الإدراك، ومن الانطباع الحسى إلى الانتباه. فكل فعل هو ضعف فى التأمل طبقاً لأفلوطين، ومن ضرورة التحول من الظاهر إلى الباطن، ومن الخارج إلى الداخل، ومن ثم خداع الحواس إلى حقيقة الموضوع. وهو ما ركز عليه كانط فى العصر الحديث فى "نقد العقل الخالص" بالتحول من الظاهر إلى الشىء فى ذاته. فالظاهر لا يعطى إلا نقائض. والميتافيزيقا هى مجرد كيمياء عقلية، وتحول كانط من الحس البسيط إلى العقل المجرد تاركاً ميدان الشعور القادر على الرؤية. أراد كانط أن يتجنب خطأين، القطيعة والشك. فوقع فى خطأ ثالث وهو التركيب بينهما على نحو آلى مجرد مصطنع، المضمون والصورة، البعدى والقبلى، الخارجى والداخلى، ومن ثم استحالة الميتافيزيقا[2]. لا فرق بين زينون وأفلاطون وكانط. زينون بحججه ألغى الحركة لصالح الثبات عن طرق حجج سوفسطائية تقوم على قسمة الحركة. وجعل أفلاطون الحقيقة ثابتة. وربط كانط الميتافيزيقا بالزمان والمكان الحسيين. لذلك كان هؤلاء الثلاثة أكثر الفلاسفة

---

(١) Ibid., pp.149-53. كورو Corot، تيرنر Turner، تائه Distrait.

(٢) Ibid., pp. 153-7.

ذكراً[1].

الحركة والتغير لا ينقسمان[2]. ولا يُوجد ثبات حقيقى. الثبات من متطلبات الفعل، يخترعه الإنسان ويحوله إلى مطلق. وهذا هو خطأ زينون فى قسمته حركة أشيل التى لا تنقسم. الحركة موضع ثم موضع جديد. والذهن هو الذى يتصورها على خط مستقيم، يسير عليه متحرك. كل حركة فعلية لا تنقسم[3].

ولا تحتاج الحركة إلى حامل متحرك أو ثابت[4]. هناك حركة، ولكن لا يوجد تحتها أشياء تتحرك. هناك حركات ولكن لا يوجد شىء مصمت لا يتغير يتحرك. فالحركة لا تتضمن متحرك. لا تتطلب الحركة عربة. الحركة فى الحقيقة هى حركة الحركات.

والعين هى أداة البصر. وهى المسئولة عن رؤية الحركة فى مكان ومسار. له بداية ونهاية.وتؤيد ذلك باللمس ووضع اليد على المتحرك فوق السطح. بل يؤيد ذلك السمع عندما يقترب المتحرك أو يبتعد، والشم عندما يقترب المشموم من الأنف أو يبتعد. والحقيقة أن الحركة لا ترى ولا تلمس ولا تسمع ولا تشم. الحركة هى الديمومة الحقة. وتسمى الديمومة الفعلية الزمان، وليس المكان المنقسم، ما قبل وما بعد. ويحتاج الفكر إلى نقطة ثابتة يرتكز عليها. فالفكر المجرد والحس البسيط هما المسئولان عن نفى إدراك التغير[5].

---

(١) زينون (٧)، المدرسة الإيلية(١)، أشيل(٣)، كانط(٧)، كانطى (١)، أفلاطون(٣)، أفلاطوتى(١)، أفلوطين(١)، كورو، تيرنر(٢).

(٢) Ibid., pp. 157-63.

(٣) Ibid., pp. 163-65.

(٤) Ibid., pp, 165-7.

(٥) Ibid., pp. 167-8.

التغير الفعلى هو تغير الزمان. والقبل والبعد هما الماضى والمستقبل. والنقطة الثابتة هو الحاضر. والزمان تيار متصل عكس المكان. والحاضر منفتح على الماضى عن طريق التذكر، وعلى المستقبل عن طريق التطلع والتوقع والانتظار، والمسار ليس متصلاً بل قد تتخلله قفزات ومفاجآت وإنبثاقات وطفرات[1].

يعيش الماضى ويبقى فى الشعور[2]. ولا يحتاج إلى تفسير. فقد اخترعت الطبيعة آلية من أجل توجية الانتباه نحو المستقبل ونقله من الماضى بعد أن يسقط جزء منه لضرورات الحياة العملية، وتحوله إلى ذكريات. ويصبح أشبه بتداعى سينماتوجرافى تتوالى فيه الصور. ليس لها مركز فى المخ بل مطوية فى الشعور الخالص وحفظ الماضى فى الحاضر ليس شيئاً آخر سوى عدم قابلية التغير للقسمة. العالم ليس أشياء بل حالات. والحركة والتخير حالات وليست أشياء. والحياة صيرورة شاملة كما هو الحال عند هيجل. ويساعد الفن على اكتشاف كيفيات ودقيقات أكثر مما يُدرك بالحس الطبيعى. ورؤية الأشياء فى العمق وليس فى السطح. لا يظهر الواقع فى حالة سكونيه بل فى حالة متحركة. كل شىء يتحرك فى الشعور، ويحيا فى الشعور، بفعل دافع حيوى يخترق الأشياء.

---

(١) Ibid., pp. 168-70.

(٢) Ibid., pp. 170-6.

٧- **الممكن والواقع**[١].

الموضوع هو الخلق المستمر على غير انتظار لأشياء جديدة مستمرة فى العالم، تحدث فى كل لحظة. فى حين أن التمثل تغير مجرد وهيكلى خالص بالنسبة للشىء الجديد. وكل تحقيق يتضمن معه عدم القدرة على التنبؤ.

لا يخلق الفنان عمله الفنى دفعة واحدة. بل يشرع فيه. ثم يتخلق بعد ذلك طبقاً لطبيعة الخلق. هكذا رسم رامبرارند وفالا سكويز[٢]. يشعر الفيلسوف بنفس الشىء فى حياته الباطنية. وأخطر شىء على الفنان هو التكرار والتقليد. الواقع عيانى حى وليس مجرداً يخضع لقوالب مسبقة. والوعى يقظ باستمرار وليس نائماً. وقد تصور القدماء أن هناك روحاً سارية فى العالم عن طريق التكرار وأشباه التكرار. وهو تصور أسطورى. يعيش الكائن الحى الديمومة. لا توجد محاولة دون بحث. ولا يوجد بحث دون استقصاء. والمادة هو هذا التردد لأن العالم الخارجى يخضع لقوانين رياضية. ويتطلب عقلاً يفوق طاقة البشر لإدراك وضعة واتجاهه وسرعته وكل مكوناته. وهو عالم مجرد. أما المادة العيانية فإنها كائنات حية شعورية، شعور يقظ وليس شعوراً غافلاً. لقد تصور القدماء وجود نفس تسرى فى العالم المادى. وبصرف النظر عن الجانب الأسطورى فى هذا

---

(١) Le Possible et Le R éel, P, pp. 116-91 . نشرت هذه المحاولة فى المجلة السويدية فى نوفمبر ١٩٣٠. وهو تطور لبعض الآراء التى تم التعبير عنها فى الاجتماع= =الأول للقاء الفلسفى فى أكسفورد ٢٤ نوفمبر ١٩٢٠. ثم حررت بعد ذلك للمجلة السويدية وقد اعتذر برجسون عن عدم استطاعته إلقاء محاضرة فى استوكهولم طبقاً للعادة بمناسبة حصوله على جائزة نوبل. ولم تكن المحاضرة قد ظهرت قبل ذلك إلا باللغة السويدية.

(٢) يذكر برجسون أمثلة من الفنانين والأدباء أكثر مما يذكر نظريات من الفلاسفة: شكسبير (٦)، هاملت (٢)، رامبرانت(٢)، فالا سكويز، رافائيل(١)، سبنسر، أفلاطون(١).

التصور فإن العالم اللامعنوى هو سلسلة من المتكررات وأشباه المتكررات سريعة للغاية. تتجمع فى تغيرات مرئية يمكن التنبؤ بها. الكائن الحى يدوم ويتجدد. والزمان هو هذا التجدد. لقد أسقط سبنسر الزمان من الحياة، وتصوره شيئاً.

وظيفة العقل هو التعامل مع عالم الأشياء فى أحاديتها. وهو العقل وليس الفكر أو الروح. وفى مقابل العقل هناك الإدراك المباشر لنشاط الإنسان الخاص وللموقف الذى يعيش فيه. فالإنسان خالق مقاصده، وصاحب قراراته، وسيد أفعاله، ومنشىء عاداته، وبانى شخصيته، ومكون حياته كما هو الحال عند الوجوديين. الإنسان صانع حياته، وفنان من المادة التى تقدمها إليه الذاكرة، بوراثة الموقف. يخلق هيئة فريدة وجديدة وأصلية، لا يمكن التنبؤ بها. كل فنان عالم بفنه. وتحتاج الطبيعة إلى فعل وليس تأمل. المهم أن يشعر الإنسان فى نفسه بالدافع الحيوى والثقة بأنه قادر على الفعل وإبداع مسار حياته. تتكرر الأشياء، وتخلق الأفعال. وهنا يتكشف عالم الإمكانيات، العالم الضمنى وليس عالم التصورات والتمثلات والأفكار والعلاقات والقوانين الرياضية والقياسات الكمية. ويصل الشعور إلى الإحساس بالمطلق كلما ركز على الجهد الخالق[1].

وتوضع المشاكل الميتافيزيقية وضعاً خاطئاً. وتحتاج إلى تصحيح الوضع وتبديد الوهم. والسبب فى ذلك تحويل الإبداع إلى صنعة. ونسلم الواقع النامى الذى لا ينقسم والذى يتم إبداعه تدريجياً إلى العقل ليقطع ويقسم فيه كما يشاء. وعادة التحول من الفارغ إلى المملوء مصدر المشاكل غير الموجودة. والمشاكل

---

(١) Ibid., pp. 99-104.

الزائفة هي المشاكل المؤرقة ميتافيزيقيا. وهناك مشكلتان: نظريات الوجود، ونظريات المعرفة.

والسؤال في النظريات الأولى هو لماذا وجود شيء أفضل من عدمه؟ ويمكن تفسير ذلك باللجوء إلى علة مفارقة. ويتوقف الإنسان عن التفكير حتى لا يُصاب بالدوار. والحقيقة أن الإنسان هنا يتعامل مع كلمات وليس مع أفكار لأن لفظ "عدم" أو "لا شيء" لا معنى له. هو لفظ من اللغة العادية. يعنى فقط غياب ما نبحث عنه، وما نرغب فيه، وما نتوقعه. لا يوجد خلاء مطلق. والحقيقة أن الفراغ لا وجود له ولا يُدرك إلا الممتلاء. لا يختفى شيء إلا بعد أن يحل شيء آخر محله. فالإلغاء يعنى الإحلال، والإزاحة تعنى الاستبدال. وهو معنى النسخ عن الأصوليين {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها}. ومن ثم فإن أفكار الغياب والعدم واللاشيء والفراغ والخلاء والخواء لا تنفصل عن أفكار الحضور والوجود والشيء والملاء والواقع والضمنى. إلا أن الحياة العملية ومتطلبات الصناعة تقتضى التعامل مع هذه الأفكار وكأنها واقع. ويسأل المتدين لماذا وجود الله أفضل من عدمه؟ وقد يقبل التناقض من أجل الإجابة بحثاً عن حل[1]. وفكرة الفوضى من نفس النوع. فالفوضى تعنى غياب النظام الذى نتوقعه. فهو وجود سلبى، حضور غيابى. هو النظام الذى لا نبحث عنه. ويرجع ذلك إلى أن الإنسان إرادة وغائية. يبحث ويتوقع. فكل نظام يتضمن شيئين: نظام خارجى، ونظام داخلى. ولا يتطابقان. الفوضى هو عدم التطابق بين النظام المتوقع والنظام الفعلى[2].

---

(١) Ibid., pp. 104-9.

(٢) Ibid., pp. 105-7

والوهمان وهم واحد. وهو اعتبار أن هناك أقل فى فكرة الفراغ عن فكرة الملاء، وأقل فى فكرة الفوضى عن فكرة النظام. والحقيقة أنه يوجد مضمون عقلى أكثر فى أفكار مثل الفوضى والعدم ثم تحدث لعبة استبدال فى الروح[١].

وهى نفس فكرة أن الممكن أقل من الواقع ومن ثم إمكانية الشىء تسبق وقوعه، ومن ثم يمكن تمثله من قبل، قبل تحقيقه. والعكس هو الصحيح. هناك أكثر فى الإمكانية منه فى الواقع. فالمكن فعل للروح يرفض صورة الماضى الذى ينتجه، ولكن عاداتنا العقلية تمنع من رؤية ذلك. وإذا عرف الإنسان ما هو أفضل عمل درامى فى الغد لأنجزه. الممكن هو شىء تراجعى من الحاضر إلى الماضى بعد أن يتحقق دون أن يتحقق كله. وكما يؤثر الماضى فى الحاضر يؤثر الحاضر فى الماضى. المكن هو ترائى الحاضر فى الماضى. ومصير المستقبل أنه يتحول إلى ماضى. والحاضر الآن يتحول غداً إلى ماضى. هذا هو الوهم. فالمكن يتضمن الواقع. ومن ثم يستلزم المكن أكثر ما يتطلب الواقع مثل هاملت لشكسبير. أما الممكن المستحيل فهو ما لا يتحقق، الوهم هو مصير المستقبل من قبل وسبق المكن للواقع[٢]. لذلك لا يجوز قول "لو فإنها تفتح باب الشيطان".

الخطأ هو اعتبار الأقل الأكثر، واعتبار الأكثر الأقل. ولتصحيح ذلك التطور شىء غير البرنامج. فالمستقبل مفتوح لعديد من الاحتمالات طبقاً لإمكانيات الحرية الإنسانية. خطأ تاريخ الفلسفة هو وضع اللاحتمية فى الحرية فى العالم، وكأن الحرية هى منافسة بين ممكنات واختيار بينها مع افتراض

---

(١) Ibid., pp. 105-9

(٢) Ibid., pp. 109-14.

وجود الممكن سابقاً على الواقع. والواقع هو الذى يتحول إلى ممكن وليس الممكن هو الذى يتحول إلى واقع.

لم تحاول الفلسفة الدخول فى هذا الخلق المتواصل للجدة التى لا يمكن التنبؤ بها. ابتعد عنها القدماء بسبب نظرية المثل عند أفلاطون، نموذج نظرية الثبات. والعالم يتغير. ولا يمكن إضافة شيء له. بل إنه تصغير وإقلال للمثل، ومن ثم أسقط القدماء الزمان من الحساب.

وأخذ المحدثون وجهة نظر جديدة. لم يروا الزمان دخيلاً أو مقلقا للخلود بل ردوه إلى مجرد مظهر. فالزمان صورة مختلطة للعقل. أعطوا الخلود للقوانين التى تحكم فى الظواهر بدلاً من خلود العقل. وفى كلتا الحالتين لا يتجاوز الأمر النظرية، ولا شأن لهما بالواقع. الزمان مُعطى على نحو مباشر، وهذا يكفى.

تكسب الفلسفة عندما تجعل المطلق عالم الظواهر المتحرك. ومعها يشعر الإنسان أنه أكثر سعادة وقوة، سعادة لأنه يبدع، وقوة لأنه يشارك فى إبداع الأعمال العظيمة. وبالتالى تقوى القوة العملية. وبدلاً من الإذلال والخضوع والعبودية إلى ضرورات الطبيعة، يصبح الإنسان مشاركاً مع معلم عظيم. ليس الأمر مجرد إعادة نظر فى موضوع المكن والواقع بل هو تأهيل للإنسان كيف يعيش[1].

---

(١) Ibid., pp. 114- 6.

# الفصل الثالث

# الصورة الفنية

## ١ – الفلسفة والأدب.

فلسفة برجسون كما هو الحال فى معظم الفلسفات الفرنسية منذ ديكارت وفلاسفة التنوير جزء من تاريخ الأدب الفرنسى بالمعنى الواسع قبل أن يتحول الأدب كشكل من أشكال التعبير الفلسفى عند الوجوديين الفرنسيين، سارتر مثل وجابريل مارسل أو عند الأدباء الوجوديين الفرنسيين مثل كامو. لم يعد الشكل الأدبى للفلسفة هو "مقال فى المنهج عند ديكارت" أو كتاب "الأخلاق" عند اسبينوزا، طبقاً للنسق الهندسى أو "الرياضيات الشاملة" عند ليبنتز أو "النسق المعمارى " للعقل كما هو الحال عند كانط أو "علم المنطق" كما هو الحال عند هيجل بل الرواية والمسرحية والشعر منذ الرومانسية عند شيللر ولسنج والرسائل الفلسفية عند ديدرو وفولتير حتى الأدباء الوجوديين المعاصرين. وتم التوحيد بين الفلسفة والأدب عند كركيجارد كرد فعل على هيجل. لم يعد "المذهب" هو الشكل الفلسفى بل الحكم والأمثال كما هو الحال عند شوبنهور ونيشته. والفلسفة الفرنسية منذ ديكارت حتى برجسون، من البداية إلى النهاية هى فى نفس الوقت جزء من تاريخ النثر الأدبى الفرنسى.

وبرجسون على وعى تام بأن كثيراً من تحليلاته، صوراً أو أمثالاً أو تشبيهات، تعتمد على المجاز والاستعارة. فهى أقدر على التعبير، وأكثر على قدرة على الإيصال، وأقصر فى العبارة. وتلك وظيفة البلاغة، أكبر قدر ممكن من المعنى بأقل قدر ممكن من العبارة. صحيح أن للتشبيه عيوبه لأن الصورة الفنية لا يمكن تحليلها لغوياً ولأنها بطبيعتها متشابهة، توحى بعديد من ظلال المعنى لعديد من القراء نظراً لاختلاف مستوياتهم فى التذوق الأدبى واختلاف مقاصدهم فى الفهم. على عكس التطابق بين المعنى واللفظ كما هو الحال فى

البرهان الرياضى بل وبين الحرف والمعنى فى المنطق الرمزى. لذلك استخدمه اللاهوت للتعبير عما لا يمكن وصفه. فبجوار اللاهوت الإيجابى الذى يصف ظانا أن الوصف هو الموصوف فيقع فى التشبيه لا محالة، واللاهوت السلبى الذى ينفى التشابه بين الوصف والموصوف من أجل التنزيه، هناك طريق الاستعارة أو التشبيه الذى يستعمل الصورة الفنية ﴿الله نور السموات والأرض﴾[1].

ونظراً لتحليل التجارب الذاتية كما هو الحال فى الظاهريات، يستعمل برجسون الأسلوب الشخصى فى ضمير المتكلم المفرد أو الجمع كما استعمله ديكارت من قبل فى "التأملات" وهو الأسلوب الذى يجمع بين الأدب والفلسفة. لا فرق فيه بين الموضوع والخبرة الذاتية. وتتخلل الأسلوب الأدبى بعض الصياغات أشبه بقواعد للتوجيه ولتلخيص التحليلات الجزئية والتأملات الشخصية كما هو الحال فى القرن السابع عشر عندما تحولت الأفكار الفلسفية إلى مصادرات رياضية عند اسبينوزا. برجسون إذن فيلسوف رياضى وبيولوجى وأديب. يجمع بين الفلسفة والعلم بنوعيه، الرياضى والطبيعى. ويستعمل الأدب كشكل للتعبير.

وهناك ثلاثة أنواع من الصور الفنية. الأول الصورة الفنية التى تقوم على كافة ضروب التشبيه من استعارة ومجاز. وهى فى العادة قصيرة والأكثر شيوعاً. تنتقل من المجرد إلى العيانى، ومن الفكرة إلى الرؤية، ومن العقل إلى الخيال. والثانى مثل يُضرب لتوضيح فكرة وللتقريب إلى الفهم. وعادة ما يكون

---

(١) وهى الطرق الثلاثة التى حددها توما الاكوينى للحديث عن الله: الطريق الإيجابى Via Positiva، الطريق السلبى Via Negativa ، وطريق التشبيه Via Analogia.

شيئاً طبيعياً خاليا من البعد الفنى وإثارة الخيال. غرضه التفهم وليس التأثير. والثالث تحليل التجربة الذاتية والخبرة الحية للاستدلال بها على صدق الفكرة وكأنها نابعة من القارىء، توصل إليها بجهده الخاص ولم يقرأها عند المؤلف. هو "التأويل" فى مقابل "التنزيل".

ويمكن تصنيف الصور الفنية طبقاً لعدة مقاييس. الأول طبقاً لمادتها، النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية أو الكونية. ويمكن أيضاً قسمتها طبقاً لأبعادها الجمالية الحركية كالارتفاع والانخفاض. وأخيراً يمكن قسمتها طبقاً لموضوعاتها التى تريد تصويرها مثل العقل والحدس، والزمان والديمومة، والحرية والطفرة، والطاقة والحركة، والعلم والتطور، والنفس والبدن، والدنيا والآخرة. وهو أفضل لمعرفة قواعد الاستعارة والمجاز والتى يتم نسخ الصور الفنية طبقاً لها.

"والصورة الفنية" هو الفصل الوحيد الذى تمت كتابه عرضياً، عبر مؤلفات برجسون النظرية أو التطبيقية لأن الصورة الفنية تتخللها جميعاً وليس طولياً، كتاب كتاباً، سواء فى المنهج أو فى الموضوع، فى النظرية أو فى التطبيق. والصورة من برجسون، وشرحها بصور مشابهة من العرض. فالصور أيضاً تتعدد وتتكاثر لدلالة واحدة.

**٢- الصورة الفنية.**

**أ- العقل والحدس.** التمييز بين العقل والحدس هو نقطة البداية فى منهج برجسون لمعرفة الأشياء بديلاً عن نظرية المعرفة التقليدية والصياغات الفلسفية والرياضية.

العقل بالنسبة للحدس أشبة بمصباح يضىء فى دهليز الشمس التى تنير

العالم[1]. العقل جزء، والحدس كل. العقل محدود، والحدس غير محدود. الحدس هو أن تشرب كل الكائنات الحية من كأس الماء وتتذوق الشهد الذى وضعته الطبيعة على حافته دون تذوق الباقى. أما العقل فينظر إلى أسفل الكأس كى يرى قاعدته حيث لا شراب ولا ذوق. الحدس يشرب من أعلى الكأس، والعقل يرى أسفله[2]، وهو التقابل التقليدى فى تراثنا القديم بين الذوق والنظر.

العقل يطير فوق الواقع والحدس يغوص فيه. الأول مثل الطيار الذى يرى الحطام من الهواء، والثانى مثل الغاطس الذى يغوص فى أعماقه[3]. العقل معرفة خارجية، والحدس معرفة داخلية. العقل معرفة على السطح، والحدس معرفة فى العمق.

العقل مناط التخصص والتجزئة، وهل يمكن أن يعرف البناء إلا بعد مشاهدة متصل الأحجار؟[4].الحدس رؤية كلية للبناء كمعمار فنى متكامل. فالهرم عظيم فى هيئته وليس فى أحجاره. الحس المشترك اتجاه سلبى للروح الذى ينتظر فى وسط الليل أن يلمع البرق ويسطع النور[5]. ويتجاوز الحدس الحس المشترك الذى يختلط فيه الحس والعقل والعادة ومتطلبات العمل. ولغة النور هى اللغة الأثيرة عند الصوفية. وفى الفن يختار الهاوى حلا من الحلول الجاهزة كما يختار السياسى الحزب الذى ينضم إليه. فى حين أن الفيلسوف هو الذى يبدع

---

(١) EC., p. VII.

(٢) DSMR., P. 222.

(٣) Intro. (2me Partie), pp., p. 67.

(٤) EP., I, pp. 12-3.

(٥) Ibid., I, p.86.

حلا جديداً غير مسبوق[١].

العقل مربوط ببقرة شغالة بجهد شاق. تشعر بعضلاتها ومفاصلها ثقل المحراث ومقاومة الأرض. مهمته أن يقوم بدوره وهو شق سلاح المحراث الأرض. العقل إذن ليس حراً بل مقيداً. وهو ما يعنى فى العربية عقل البعير أى ربطه. عمله شاق ولكنه ضرورى. يحتاج إلى زمن طويل ونتائج ملموسة. فى حين أن الجهد الفلسفى والعلمى هو استخراج القوانين واحدة تلو الأخرى بالحفر فى الوقائع التى تغطيها، كما يعرى الأثر المصرى بالجاروف وسط رمال الصحراء[٢].

والحدس كالخيط الذى يصعد إلى أبعد نقطة فى الأرض[٣]. كالكشاف الذى ينير، كالشعاع الذى إذا واجه موضوعاً أضاءه. الحدس يجمع حالات الشعور كما يضم الخيط حبات العقد[٤]. هو رؤية مباشرة بلا توسط على عكس هيجل الذى لا يتم الإدراك لديه إلا بالتوسط والتخارج. أما الحدس فلا يتجاوز الحس، الشىء فى الزمان والمكان، لا فرق بين كانط فى الحساسية الترنسندنتالية فى "نقد العقل الخالص" وهيجل فى الإدراك الحسى فى "ظاهريات الروح".

ب-**الصورية والتجريبية**. وهى أحد أشكال ثنائيات برجسون الشهيرة، ثنائية المثالية والواقعية، الروحية والمادية، العقلية والحسية اللذان يمثلان فم الوعى الأوربى المفتوح وفكيه المتباعدين. الأول إلى أعلى، والثانى إلى أسفل، منذ

---

(١) EP., III, p.605.

(٢) La Philosophie de Claude Bernard. PM., p. 235, Ibid., p.192.

(٣) Introduction ála Métaphysiqu, PM., p. 50.

(٤) Ibid., p. 207.

ثنائية ديكارت فى بداية العصور الحديثة[١].

وينقد برجسون الصورية أو العقلانية أو المثالية مستعملاً عدة صور. فلا توجد الفكر قبل الفكرة كما لا توجد الحرارة قبل الكرة الحارة[٢]. فالواقع يسبق الفكر. ولا يوجد فكر إلا ذا وجد الواقع قبله. الفكر فكر الواقع، والواقع واقع الفكر.

وعلاقة الشعور بالمادة مثل علاقة الرداء بالمشجب. إذا وقع المشجب وقع الرداء. وإذا تحرك المشجب تحرك الرداء. بل قد يخرق المشجب الرداء أو يخرمه[٣]. فالفكر محمول على الواقع، والواقع حامل الفكر.

وعلاقة المخ بنشاط الذهن مثل علاقة عصى قائد الاوركسترا بالسيمفونية. فالمخ هو الذى يوجه نشاط الفكر وإن كان مسئولاً عنه. فالموسيقى مستقلة عن عصى المايسترو، ولكنها تتوجه بحركته[٤].

ويكفى فلك قلاع المركب الشراعى حتى يتراقص المركب فوق الموج. فأى تغير طفيف فى جوهر المخ قد يحرك الذهن. وهى علاقة الحامل بالمحمول والدال بالدلالة كما يعبر عن ذلك هوسرل[٥].

ليس الاتساق المنطقى مقياساً للحقيقة. وقد يخرج المجنون عن عقله وفى نفس الوقت تتفق استدلالاته مع قوانين المنطق[٦].

---

(١) مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية/ القاهرة، ١٩٩١، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) L'âme et le corps, ES., p. 45.

(٣) Ibid., p. 40.

(٤) Ibid., p. 45.

(٥) Ibid., p. 48, 7 . Fantomes de Vivant

(٦) L'áme et Corps, ES., p, 48.

والبحث عن أصل العالم فى علة أولى مثل الشاك الذى يغلق النافذة ثم يعود ليتحقق من هذا الغلق. ثم يعود ليتحقق من هذا التحقق إلى ما لا نهاية[١].

ويضرب المثل فى الوحدة والكثرة على التماثل والاختلاف بين الواحدات بقطيع الخراف الذى تتماثل فيه كل الخراف فى الشكل. ومع ذلك تتعدد على الأقل بتعدد أمكنة الخراف[٢]. فالمشكلة ليست ميتافيزيقية بل واقعية. فالإنسان واحد والآخرون كثيرون، والخروف واحد، والخراف كثير. والقمر واحد والأقمار كثيرة.

وأصل التجريد فى الواقع. إذا يُفترض أن النقاط كرات قبل أن تتحول إلى نقاط مجردة[٣]. والطفل يعد على أصابعه حبات البرتقال قبل أن يجرد العمليات الحسابية وبعد ذلك المعادلات الجبرية، فى جبر الحساب. ليس للتصور أى ثقل. هو مثل ظل الجسم أى مجرد تابع وهمى، مجرد خيال، انعكاس لشىء آخر[٤]. والفيلسوف الذى يريد القبض على الموضوعات بالتصورات مثل الأطفال الذين يريدون القبض على الدخان بأيديهم[٥]. هو مثل الطفل الذى يريد أن يصنع لعبة فعلية من ظلال حوائط طويلة[٦]. وهو مثل الراعى النعسان الذى يرى أمامه الماء يسيل ولا يراه ولا يتحرك ليشرب. فالدخان تابع للنار، والنار تابع للشىء المحترق. والماء الذى يسيل ليس سراب بل هو ماء بالفعل لا يراه الفيلسوف

---

(١) Intro. (2mie pasti), pm., p66.

(٢) DIC., p. 57.

(٣) Ibid., p.58.

(٤) á la Melerphys'que, pm., p. 188

(٥) Ibid.; p. 194.

(٦) Ibid., p. 194.

النائم[١].

الأفكار العامة مثل أوراق النقد بدلا من غطائها الذهبى. إذا كثرت قلت قيمتها وإذا قلت زادت قيمتها[٢]. فالتصورات أوراق مالية بلا رصيد إن لم يكن تستند إلى واقع. والتصورات الصادقة كالأوراق المالية التى لها رصيد من غطاء ذهبى. فائدة الأفكار العامة المجردة مثل فائدة الأوراق المالية، الفعل[٣]. "نقد العقل الخالص" عند كانط أشبه بالتلميذ المعاقب الممنوع من أن يحرك رأسه إلى الوراء ليرى الواقع كما هو عليه. وهو مشابه لأسطورة الكهف عند أفلاطون[٤].

واختلاف الفلاسفة المثاليين لا ينفى وجود قاع مشترك بينهم لنفس المحيط بالرغم من أنه يقذف على السطح مواد مختلفة[٥]. يشترك الفلاسفة فى وحدة البركان الكامن فى قاع المحيط ثم يختلفون فى انبثاقاته وانفجاراته المتعددة على السطح. ويكشف لنا تاريخ الفلسفة الصراع الأبدى بين المذاهب، واستحالة إدخال الواقع فى ملابس مصنوعة، وهى التصورات الجاهزة، وضرورة التفصيل على قد المقاس[٦]. فالمثالية ثوب فضفاض على الواقع. والواقع ثوب ضيق على المثال. وبرجسون هو الذى يقد الفلسفة على قد الواقع، ويؤسس الميتافيزيقيا على العلم.

---

(١) Ibid., p. 206.

(٢) Intro., (2 me partie),PM., p.58.

(٣) La pereption du changement , Ibid., p. 145.

(٤) Ibid., p. 69.

(٥) Intro. à la Méta (1 partie), Ibid., p.11.

(٦) EC., p48.

الفكرة الواضحة الجلية بذاتها هى الفكرة الجديدة تماماً، فكـرة الفيلسـوف، وليس فكرة الكتبة والفريسيين[١]. فشرط الفكرة الجدة والإبـداع ولـيس فقـط الوضوح والتميز أو النقل الصحيح بتعبير القدماء "موافقـة صـحيح المنقـول لصريح المعقول".

وأكثر التصورات إحكاماً فى التجميع وأكثر الاستدلالات إحكاماً فى المنطق تنهار كقصور من ورق عندما تصـدم بواقعـة[٢]. فـالواقع هـو الأسـاس، والتصورات انعكاسات لها. المذاهب الشامخة كالبالونات منتفخة. يكفيها "دبوس" من الواقع حتى "تفسى". الصورة الجديدة التى يمثلها الإنسان كالشكل الذى يعطيه صانع الفخار للآنية[٣]. فالصورة خارجية محضة، أقرب إلى الشكل منها إلـى الجوهر أو المضمون عكس أرسطو واسبينوزا. فالصورة عندهما جوهر الشىء.

كتاب "الأخلاق" لاسبينوزا كالدبابة،جسم ضخم على أرض أقل ضـخامة. قوتها فى ثـقلها وليس فى الأرض التى تسير عليها[٤]. عظمتها فـى حجمهـا وليس فى مناورتها. وفى حرب أكتوبر استطاع الصاروخ الصغير على كتـف الإنسان تدميرها.

ومذهب بركلى كمن يضع الخل فى الزيت، تمـثلات وإحساسـات ذاتيـة، ووضع للعالم الخارجى فيها، ويبقى الخل والزيت منفصلين غير مختلطين. العالم عالم، والفكر فكر[٥]. وهو ما قاله الصوفية بالنسبة لحلول اللاهوت فى الناسوت

---

(١) Intro. à la Méta (2me Partie), Ibid., p.33.

(٢) la perçeption du changemient, PM., pp. 145-6.

(٣) Le possible et le Réel, Ibid., p.102.

(٤) L'intuition Philosophique, Ibid., p. 124.

(٥) Ibid., p. 126.

ودون إتحاد به.

العقل أقرب إلى الفعل والسلوك وتلبية متطلبات الحاجات العملية. العقل بالنسبة للسلوك كالغريزة بالنسبة للنحل، حركة طبيعية من أجل البقاء[١]. لا يثور ولا يغضب. هو عقل راضى، يرى العالم صورة فى مرآته. فهو العاكس للحقائق. وفيه يتجلى كل شيء. وهو على علم بكل شيء. لا تخفى عنه خافية[٢]. هو خزينة معلومات وليس مصدر علم.

حياة الإبداع مثل كرة مطاطية تنتفخ تدريجياً، وتأخذ أشكالاً غير متوقعة. والعقل يتصورها فارغة. فهناك شيء وراء العقل يعطيه شكله ويحدد قدرته واتجاهه[٣].

إن حجج زينون الأيلى أشبه بطفل يحبو على أربع، ويطلب أن تنتزع إليه الكواكب[٤]، فالخطأ لا يؤدى إلى الصواب. والوهم لا يوصل إلى الواقع. وقسمة العقل غير تواصل الحدس. ومع ذلك، هى الحجج التى أيقظت برجسون من سباته فاكتشف الخلط بين المكان والزمان، بين المنقسم وغير المنقسم، بين المنقطع والمتصل.

الواقع هى الأرضية التى تنبت فيها الحقيقة[٥]. وهنا يبدو برجسون أقل نقدا للتجريبية منه إلى نقد المثالية. المهم أن تكون التجربة هى التجربة الخالصة العميقة، وليس التجربة السطحية الساذجة. الواقع بلا حقيقة صحراء جرداء

---

(١) Intro. (2 me partie), PM., p. 84.

(٢) sur le Pragmatisme de William James, Ibid ., p. 241.

(٣) Le Possible at le Réel, Ibid., p. 105.

(٤) Ibid., p.285.

(٥) sur Le Pragmetisne de William James, PM., p. 248 .

والحقيقة بلا واقع نبت شيطانى.

التجربة الخالصة أو التجربة الجذرية كالنهر الذى يفيض دون تحديد اتجاه مسبق[1]. فالحرية جوهرها، والديمومة نسيجها. الطاقة، بدايتها والحركة مسارها. والتوقف نهاية طبيعية للدافع الحيوى.

ويعرض برجسون فلسفة راقيسون وكيف أن أرسطو بالنسبة له كان يبحث فى باطن الأرض. وأقام نفقاً تحت الأرض يعرض فيه كالمهندس الذى يحفر نفقاً من أماكن متعددة ثم يوصل بينها[2]. ولا يبنى قصوراً فى الهواء كما فعل أفلاطون.

ووليم جيمس أول من أدرك أن الحقيقة تتجه إلى الأمام مثل كرستوفر كولمبوس أول من أكتشف أمريكا[3]. الحقيقة تتقدم ولا تثبت. تخلق ولا تعطى، حركية وليست ثابتة. لذلك كانت الحقيقة الصوفية أكثر حقيقة من الحقيقة الرياضية.

لقد أخطأت المثالية والواقعية معا. أعطت المثالية الواقع أكثر مما يستحق. وأعطته الواقعية أقل مما يستحق. لقد حفر التجريبيون تحت الواقع خندقاً عميقاً. وبنى المثاليون فوقه جسراً جميلاً. والنهر الذى يحرك الأشياء يمر بين هذين العملين الفنيين دون مسهماً[4].

المشاكل الفلسفية الكبرى كالكوب يحكم عليها البعض بأن نصفها مملوء،

---

(١) Ibid., pp, 241.

(٢) La vie et L'oeuvre de Ravaisson, Ibid., p. 256.

(٣) Ibid., p. 247.

(٤) Intro. à la Méta., Ibid., p.220.

والبعض الآخر بأن نصفها فارغ. فهناك ملاء فى زجاجة نصفها مملوء، وفراغ فى زجاجة نصفها فارغ[١].

ومنهج برجسون هو إلقاء التراب فى أعين الخصوم من أجل إيقاعهم فى التناقض والخطأ وتعرية الوهم كما كان يفعل سقراط مع محاوريه[٢]. يحفر فى الشيء ليرى تكوينه بعيدا عن الإسقاطات العقلية عليه. فينحاز القارىء إلى برجسون وينضم إليه ضد خصومه. لذلك انتشرت "البرجسونية" كمنهج وليس كمذهب. وكثر البرجسونيون أثناء حياته وبعد موته.

**جـ- الزمان والديمومة والحرية.** الزمان غير المكان. الزمان تجربة باطنية، والمكان فضاء خارجى. وهى قسمة لا تبعد كثيرا عن تمييز كانط بين الزمان والمكان كصورتين للحساسية الترنسندنتالية، الزمان للظواهر الداخلية، والمكان للظواهر الخارجية. وهى نفس قسمة العصر الوسيط إلى حواس خمس داخلية، الوهم والذاكرة والحافظة والمخيلة والحس المشترك بالإضافة إلى الحواس الخمس الخارجية. وهى نفس الثنائية بين الكيف والكم، بين التوتر والامتداد، بين ما لا ينقسم ، بين المتصل والمنقطع...إلخ. والخلط بين الزمان والمكان كوضع العصا فى العجلة ليحركها. فالزمان هو المحرك[٣].

والزمان سجل للتدوين. حيث يوجد شيء يحيا، هناك سجل يكتب فيه الزمان وهو الذاكرة. ويدرك برجسون أن هذه مجرد استعارة[٤]. وفى إحدى

---

(١) Intro. (2me Partie), Ibid., p. 67.

(٢) EP. I, P. 105.

(٣) EC., P. 214.

(٤) EC., p. 16.

أغانينا الشعبية الوطنية "سجل يا زمان".

والزمان عند ليبنتز "غائية جذرية". إذ يُرد الزمان إلى إدراك مختلط من منظور إنسانى يتبدد كما يُبدد الذهن الضباب وسط الأشياء[١]. الزمان ينقشع بفضل حرارة الذهن، ويتبدد كما ينقشع الضباب إذا سطع ضوء الصباح.

والشعور بالزمان مثل خيط من المطاط، يشد ويرخى. ويرسم هذا التوتر على أنه خط منقسم رياضياً. وهو حركة واحدة لا تقبل القسمة[٢]. الزمان لا هو سائل يتعامل معه الذهن، ولا هو صلب تتعامل معه الحواس. هو مادة مطاطية، تطول وتقصر، تشتد وترخى، "يزيد وينقص" كما يقول القدماء فى الإيمان، مستعملين لغة الكم لوصف موضوع كيفى خالص.

وتكثر صور الديمومة نظراً لمركزيتها فى فلسفة برجسون. فهى ديمومة فى الأشياء دون أن تكون شيئاً تسرى فيها وتربط بينها. "تعض الديمومة على الأشياء وتترك آثار أسنانها عليها"[٣]. وتحت قطع الكريستال المشطوفة جيداً، ووراء هذا التجميد المفتعل هناك تواصل مستمر. هذا هو جدل الخارج والداخل فى الشعور[٤].

وهى ديمومة فى العالم. تسطع كالشمس وتشع نورها وحرارتها ربما على أبعد الكواكب. ومع ذلك تسير الكواكب فى فلكها وفى مسار خاص. هناك ديمومة واحدة مباطنة فى العالم كله[٥]. توحد بين أجزائه، وتجمع بين متفرقاته.

---

(١) EC., p. 40.

(٢) Intro. à la Méta., PM, P. 184 .

(٣) EC., p. 46.

(٤) Intro. à la Méta., PM., p. 183.

(٥) EC., p. 10-11.

وهناك ديمومة الأفكار. إذ تتولد الأفكار من بعضها البعض كما تتولد الألحان. يتولد مفهوم الحرية. ثم يتولد منه مفهوم المساواة. ثم يتولد منه مفهوم العدالة[١]. تطل بعض الأفكار في الأعماق، وأخرى تظهر على السطح كأوراق ميتة على ماء مستنقع، وهي الأفكار الجاهزة[٢].

والصلة بين الانفعال والتمثل كالصلة بين النار والرماد. ولو أزحنا الرماد لوجدنا النار مشتعلة بل وتزداد اشتعالاً. فالتمثل كالتصور مجرد رماد لا يحييه إلا الانفعال[٣].

ويسرى الحماس من نفس إلى نفس كما يسرى الحريق[٤]. فالنفوس المتفردة هناك نفس واحدة تجمعها ﴿سبحان الذى خلقكم جميعا من نفس واحدة﴾. ومع ذلك حالات الشعور مثل إبرة من ثلج تلمسها اليد[٥]. لا يمكن تثبيتها ولا تجميدها. توجد لتهرب، وتظهر لتغيب، دون أن يكون الوجود عدماً.

الديمومة أشبه باللحن الداخلى[٦]. يصدح فى النفس دون جوقة للعزف وآلات للاستعمال. هو هاتف فى السحر، صوت للضمير، الهام شاعر، ورؤية صوفى.

كل شعور هو تيار سائل أشبه بفك "رول". لا يوجد شعور إلا ويتّخلق

---

(١) DSMR., p. 59.

(٢) DIC., p. 101.

(٣) DSMR., P. 47.

(٤) Ibid., p.59.

(٥) Ibid., p. 103.

(٦) Intro. (1erl Partie), PM., p. 11.

ويتكشّف ويتجلّى[1]. الشعور قد ينضوى على نفسه وقد ينفتح. قد ينقبض وقد ينبسط بلغة الصوفية. يسكر ويصحو، يغيب ويحضر، ينام ويستيقظ، يخمل وينشط، بلغة هوسرل. هو أشبه بفتح المروحة بسرعة أو ببطء ثم الرسم عليها[2]. وتصعب رؤية الرسم والشعور فى حالة قبض. وتسهل الرؤية والشعور فى حالة بسط. وهو مثل كوب الرحلات ينغلق فيصبح علبة، وينفتح فيصبح كوباً. تنساب من الماضى إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، ديمومة واحدة، كاللحن الموسيقى[3]. وتحت تأثير عصا سحرية لقائد الأوركسترا، يتم استدعاء أشياء جديدة للتمثل مما قد أدرك من قبل.

ليس المهم فى تيار الشعور المتصل الجواهر المعلقة فى العقد، الماضى والحاضر والمستقبل، بل الخيط الذى يربط هذه الجواهر فى تيار واحد[4]. التيار التيار اتصال. والحدوس كالجواهر معلقة عليه.

والذكريات كل متضامن كالهرم الذى تتحرك قمته باستمرار، ويتحد مع الحاضر، اندفاعاً نحو المستقبل[5]. فلا فصل بين لحظات الديمومة الثلاث[6]. الذكريات المتراكمة فى الشعور فى حالة كمون أو طفرة، إحجام أو إقدام، فعل أو انفعال.

وكلما كان قدر الماضى الذى يحل فى الحاضر أكبر كانت الكتلة التى تدفع

---

(١) Intro. à la (a méta., Pm., p. 183).

(٢) Ibid., p. 11.

(٣) Intro. (2me Partie), PM., p. 76, PM., p. 37.

(٤) Le Rêve, ES., P. 95.

(٥) La conscience et la vie, ES., p. 15.

(٦) . MM., p. 25

نحو المستقبل للإسراع فى تحقيق الإمكانيات أعظم مثل السهم عندما ينطلق بقوة أكبر إلى الأمام كلما أشتد القوس إلى الخلف[١]. تلعب الذاكرة بالماضى وتتخيله الروح. فعالم الشعور عالم واحد.

الحفظ عن طريق الفهم كالورقة المالية التى تتضمن النقود المعدنية. فهو حفظ عن طريق التداعى الفعلى للأفكار، وليس مجرد تراص مكتوب. حفظ له قيمة فعلية بقطع معدنية وليس قيمة رمزية بورقة مالية.

والحرية تجربة إنسانية خالصة تعبر عن طبيعة الشعور وتياره المتصل الذى لا يمكن التنبؤ بمساره. وهى أيضاً فى الطبيعة، إمبراطورية داخل إمبراطورية أو مستقلة عنها[٢]. فالتيار الحيوى لا يمكن التنبؤ بمساره. ويفترق ويتشعب طفرة دون إتباع قانون مسبق. الحرية تعبير عن الدافع الحيوى، انبثاق من الضرورة، حرية ضرورية أو ضرورة حرة.

والأنا الذى يحيا وينمو وسط تردده، ينبثق منه الفعل الحر "كما تسقط الفاكهة الناضجة من على شجرتها[٣]. الفعل الحر ازدهار طبيعى للأنا الحى، تحقق فعلى للأنا النشط، تعبير عن الأنا الذى يضع ذاته حين يقاوم بتعبير فشته[٤].

---

(١) L'effort in tellectuel, ES., p. 161.

(٢) MM., p. 279.

(٣) DIC., P. 132.

(٤) فشته. فيلسوف المقاومة، الجمعية الفلسفية المصرية (٤)، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٨١-١٩١.

د- **الطاقة الروحية والدافع الحيوى والعلم.** الطاقة يستمدها الجهد من المادة مثل الطاقة التى تتولد عن الشمس[١]. فصور الإنسان عن نفسه مستمدة من صور الطبيعة. المادة طاقة كما يقرر العلم. والإنسان باعتباره مادة طاقة للجهد العضلى، وباعتباره روح طاقة روحية. فالطاقة الإنسانية مزدوجة المصدر. وأثر الإرادة على الطاقة مثل الشرارة التى تفجر مخزناً للبارود[٢]. الطاقة إمكان يتولد بالإرادة، وتتفجر بالحرية. ولا يكثر برجسون من الصور الخفية للطاقة لأنها هى نفسها صورة فنية للتعبير عن قدرة الإنسان على الخلق، وقدرة الذات على الخلق.

ولا يؤخذ الإنسان بين القشرة والشجرة لأن القشرة تتشقق، والشجرة الضيقة تنمو بدافع جديد من غذاء النبات[٣]. فالطاقة الروحية فى الإنسان لا يمكن حبسها بين القشرة واللب. هى دافع حيوى مباطن فى الأشياء. الطاقة إمكانية، والدافع الحيوى تحقق. الطاقة منبع، والدافع الحيوى نهر يخرج منه. الطاقة بركان كامن والدافع الحيوى انفجاراته وحمائمه.

الواقع الحيوى أشبه بالشعر الذى يسرى خلال الحروف الأبجدية والكلمات[٤]. ليس الشعر هو الأبيات والقصائد بل هى الشعرية التى تسرى فيها. الشعر هو الروح، والكلمات هو البدن. الشعر لفحة نسيم، نفحة نفس.

---

(١) EC., p. 117.

(٢) L' âme et le Corps, ES., p.35 .

(٣) DIC., p. 222.

(٤) EC., P. 259.

وقد يتوقف الدافع الحيوى فى الحياة. ويعجز مؤقتاً عن السير كالطفل الذى ينحنى بقوة فى نهاية الانزلاق (الزحلقة) [١]. فالمانع يصد والجسم مازال يتحرك، فينشأ الانحناء. الحركة فعل، الانحناء رد فعل على التوقف الفجائى. لذلك وضعت المساند الهوائية أمام الراكب الأمامى حتى لا يصطدم بزجاج العربة فى حالة التوقف الفجائى أو الارتطام بمانع.

وتؤثر العلة طبقاً للدوافع أو الاندفاع أو التدحرج مثل كرة البلياردو[٢]. العالم مثل لفة كبيرة تتدحرج كل يوم فينكشف جزء منها[٣]. وهو ما لاحظه ابن عربى فى "فصوص الحكم" فى النبوة والخلق، فى الوحى والوجود، فى الذات والموضوع. فالخلق مستمر، وليس مرة واحدة إلى الأبد. يحدث كل يوم.

وفى التطور "الطريق الذى يصعد إلى المدينة يضطر إلى الهبوط على الجوانب. ويتأقلم مع مرتفعات الأرض"[٤]. فالحياة اندفاع وتكيف، انطلاق وتوقف، إقدام والتفاف. "الحرب خدعة".

ويشمل الدافع الحيوى الغائية لأنه يجمع بين العلة والغاية، بين العلة الفاعلة والعلة الغائية، بداية ونهاية، دفع وجذب، انطلاق من أسفل وشد من أعلى. أما "الغائية الجذرية" عند ليبنتز خارجية وليست داخلية، أقرب إلى العلة الفاعلة منها إلى العلة الغائية. فليس من المعقول أن العشب قد خلق للبقرة، والحمل للذئب[٥]. وهو ما يشبه قول المعتزلة أيضاً فى الغائية. فى حين يركز فشته على العلة

---

(١) La conscience et la vie, EC., p. 25.

(٢) EC., p. 23.

(٣) Ibid., p. 10-11.

(٤) Ibid., p. 103.

(٥) EC., p. 41.

الغائية وحدها باعتبارها هى العلة الفاعلة الحقيقية. وعند إقبال تتخلق الذات بالغايات.

ولا تهتم الآلية والغائية إلا بالنواة المنيرة فى المركز. وتتكون هذه النواة على حساب باقى الأشياء عن طريق التركيز والتيار السيال من أجل إدراك الحياة الباطنة[١]. هناك نواة أولى ينشأ منها الكون، ونواة أولى ينشأ منها الإنسان. فالحياة انبثاق، كمون وطفرة، موهبة واكتساب، عبقرية ومهارة. والفرق بين السبب والعلة، بين المبدأ والقوة المنتجة مثل النهر الذى ينساب طبقاً لجريان المياة، وكيفية جريان المياه وجزئياتها. الفلسفة نتجت من السبب، والعلم عن العلة[٢]. لذلك سميت "الفلسفة الأولى".

ويتصور العلم الحديث العالم ككل شامل منظَّم كالساعة[٣]. لذلك وقعت فى التصور الآلى للعالم. العالم سلسلة من المتكررات المتشابهة للغاية. تتجمع فى تغيرات مرئية يمكن التنبؤ بها مثل ذبذبات بندول الساعة. فهذه مرتبطة على لولب يربطها فيما بينها، وترصد تقدمها. والأولى تنظيم إيقاع الحياة والكائنات الواعية وقياس ديمومتها[٤].

وهو يبحث عن سيناء جديدة. ولما كانت سيناء هى مهبط النص فالعلم الحديث فى حاجة إلى إعادة بناء[٥].

---

(١) EC., p. 46.

(٢) La Philosophie de C. Bernard., PM., p. 199.

(٣) L'âme et le corps, ES., p. 40.

(٤) Le Possible et le Réel, PM., p.101.

(٥) Intro. à la Méta., PM., pp. 218-9.

أما العلوم الوضعية فهى مجرد مخبار أو محبس أو مسبر فى الديمومة الخالصة. وكلما كان الواقع حياً كان المسبر أعمق. والمسبار المقلى فى البحر يحضر معه كتلة من السائل تجففه الشمس بسرعة. وتحوله إلى حبات رمل صلبة ومفككة. وعندما يتعرض حدس الديمومة لأشعة الذهن يتحول إلى تصورات مجمدة متمايزة وثابتة[١].

والحقيقة الوجدانية بالنسبة للحقيقة العلمية كالقارب الشراعى بالنسبة للقارب البخارى[٢]. الأول إنسانى يقوم على الجهد للسيطرة على مهاب الريح، وتوجيه القارب نحو الهدف. والثانى آلى يسير بقوة القانون والعقل العلمى. وهذا هو الفرق بين الفلسفة والعلم.

وكما تبدو إجابات الطبيعة سهلة على الأسئلة الموجهة إليها كذلك تعرض اللوحة التى رسمها فنان عظيم الأصل. ونحن نعرف الأصل والنموذج الذى رسمه[٣]. وهذا هو الفرق بين الفن والعلم.

**هـ- النفس والبدن، والإنسان والمجتمع.** النفس سجين البدن طبقاً للتصور الشائع عند الصوفية. تتحرر بتحرره. هذه القوة النفسية السجينة فى النفس مثل الرياح فى كهف من العصر الحجرى تنتظر فيه فقط لتنطلق خارجه[٤]. وهو أيضاً التصور الأفلاطونى القديم.

---

(١) DSMR. P.5.

(٢) Sur le Pragmatisme de William James, PM., p. 250.

(٣) La philosophie de Clauade Bernand., Ibid. p. 230

(٤) DIC., P.15.

علاقة النفس بالبدن مثل علاقة المشجب الذى تُعلق عليه الملابس. إذا اتخلع المشجب سقطت الملابس[١]. علاقة محمول بحامل، وربان بسفينة. الجسم فى المكان. يشع خارجه من خلال الإدراك عامة والرؤية خاصة حتى الكواكب[٢]. والنفس مصباحه الداخلى الذى يضىء له الطريق، كشافه الباطنى الذى يساعده على رؤية الأشياء.

والحياة الدنيا أشبه ببالون يملأ بالهواء ثم يفرغ بسرعة[٣]. هى حياة زائلة، حياة البذخ والشهرة والبهرجة والغرور والظهور والوجاهة الاجتماعية.

رحلة بدأت ولم تتوقف. وفى الطريق تزداد الرغبة فى الاستمرار فيما تم قطعه من قبل[٤]. والإنسان على راحلة. وقد صور الصوفية من قبل الرحلة فى "رحلة الطير" والهجرة إلى بلاد أخرى.

ويعرف الإنسان الغاية القصوى من الإبحار بالرغم من مخاطره[٥]. يتجه إليها بإرادته أو قدره المحتوم. حريته قدره، وقدره حريته. يختار الصعاب ليجتازها. الحياة مغامرة، والفعل مخاطرة، والقرار مقامرة، والوجود رهان.

ويخفت ضوء المصباح فى ضوء النهار عندما تنحسر اللذة أمام السعادة[٦]. السعادة[٦]. ويبتلع الكل الجزء، وينضوى الجزء تحت الكل. فاللذة ما هى إلا قطرة فى بحر السعادة. واللحظة ما هى نقطة فى محيط الخلود.

---

(١) MM., p. 4.

(٢) L'áme et le corps, ES., p.30 .

(٣) DSMR., p. 323 .

(٤) DSMR., p. 333.

(٥) Ibid., p. 323.

(٦) Ibid., p. 338.

والفرد فى المجتمع المغلق كالنحلة فى بيت النحل. يعيش للجماعة، وتعيش الجماعة فيه بلا فردية ولا وجود ذاتى[١]. الإنسان للجماعة فى الدين الثابت عن طريق الفناء، وفى الدين الحركى عن طريق المحبة والكرم والإيثار. لا منشد بلا حلقة، ولا حلقة بلا منشد. لا شيخ بلا طريقة، ولا طريقة بلا شيخ.

وتعمل المرأة كى تكون مساوية للرجل بدلاً من انتظار إشارة الحركة من قوس الموسيقى[٢]. فالمرأة كيان ووجود تتجلى فيها الغريزة. ويسرى فيها الدافع الحيوى الذى يتوقف كلما تراكمت العقبات وازدادت الموانع.

يدخل نهر الرون إلى بحيرة جنيف. ويبدو فى الظاهر اختلاط مائه بمائها. وفى الحقيقة يخرج منه محافظاً على استقلال «مرج البحرين يلتقيان». فالفردية لا تذوب فى الجماعة. وهى صورة الإنسان فى العالم. يدخل فيه ويخرج منه كما دخله. وهو ما قاله أورتيجا فى الدفاع عن الفرد ضد الجمهور، وهيدجر فى الدفاع عن الوجود الإنسانى ضد الإنسان المجهول[٣].

وفى تأكيده على أهمية التعليم يهيب بالمربين: أعطوا العشب فرصة. فالتعليم مثل الزرع، بذر وري وحصد[٤]. وقد عاصر تولستوى فى النصف الأول من حياته. فالطبيعة هو خير معلم.

---

(١) Intro., (2 me Partie), PM., P. 86. DSMR., p. 222.

(٢) Dass Mann الإنسان المجهول ، Ibid., p. 283

(٣) DSMR., P.325.

(٤) EP, III, P.488.

والإنسان العبقرى هو الذى يسطع كالبرق فى السماء الصافى[1]. هو انبثاق وسط المسطح، موجه عاتية وسط الماء المنبسط، بركان وسط الجبال الهادئة، منبع وسط الصحراء، عمود نار وسط الثلج.

السعادة أو الفرح مثل الأم التى تربى طفلها. وهى سعيدة لأنا تشعر بأنها هى التى خلقته جسمياً ونفسياً. وكذلك يسعد التاجر الذى ينهى أعماله، وصاحب المصنع الذى يرى ازدهار صناعته[2].

**٣- التشبيهات والأمثال**

وقد تكون الصورة الفنية مجرد تشبيه أو مثل. وهو أقل تأثيراً من الصورة الفنية، وأقرب إلى التشبيهات والأمثلة الطبيعية.

يضرب المثل بوحدة الماء المركبة من غازين على وحدة الزمان وكثرة المكان، وحدة الداخل وكثرة الخارج[3]. فالوحدة مصير الأجزاء. التحليل بداية والتركيب نهاية.

وقد يكون المثل من حركة الأفلاك مثل ضرب المثل على إدراك الحركة برؤية الشهاب المتحرك بسرعة فائقة حيث يبدو وكأنه خط نار متوصل[4]. وهو ما سماه برجسون "السينماتوجرافيا"، بقاء الصور السريعة فى الذهن فتبدو حركة متصلة.

ويضرب المثل على المصادفة بعدم فهم العلاقة بين تيار النهر ودفع

---

(١) خطاب الأكاديمية الفرنسية لتأبين أميل أوليفييه. EP. III, P. 472.

(٢) La Cosncience et la vie, ES., p. 23.

(٣) DIC., PP. 65-70.

(٤) Ibid., p. 83.

القارب، بين درجة شد القوس وسرعة السهم، بين الفأس وقطع الشجرة، بين الأسنان والقضم، بين الأرجل والمسير. يرى البدائى قتل حجز تدحرج بسبب العاصفة لشخص ما وصدمة الحجر للدفاع دون ربط بين الحدثين[١]. وهو ما أثاره الأشاعرة القدماء وإنكارهم العلية، وعدم الربط الضرورى بين السبب والمسَّبب. وكذلك التحكم فى مسار السهم للوصول إلى غايته[٢].

ويميل برجسون إلى وصف وليم جيمس للزلزال الذى ضرب مدينة سان فرانسيسكو فى إبريل ١٩٠٧، وتشخيصه للطبيعة بصور إنسانية حتى يمكن استيعاب الزلزال وتمثله.

وقد يكون المثل من العلاقات الإنسانية أو حتى من علاقة الإنسان بالحيوان. فيضرب المثل باستقبال الكلب صاحبه بأصوات فرحة ومداعبات بذيله[٣]. فالتعرف أى إدراك شىء تم إدراكه من قبل عند الإنسان والحيوان على حد سواء.

ويضرب المثل على إرادة النجاح بالقمار على العجلة الدائرة (الروليت)، ووضع مبلغ من المال على رقم معين، وانتظار وقوف العجلة على الرقم الكاسب. وتحرك اليد لإيقاف العجلة على الرقم المطلوب بالرغم من التردد. ثم تمتنع اليد والإخراج المقامر عن قواعد اللعبة. إنها الإرادة التى تنبثق من الذات، إرادة النجاح[٤].

---

(١) DSMR., P. 151.

(٢) Ibid., 147.

(٣) MM., p. 87.

(٤) DSMR., P. 147.

وتبدو حركات السباح غير متوافقة ومضحكة لمن ينسى أنه فى الماء أو أن هذا الماء يحمل السباح، وأن حركته ومقاومته للماء وتيار النهر كل واحد. وهذه وظائف الآلهة فى حياة البشر، ضم أجزاء الحياة فى كل واحد[1]. فالأجزاء آلية، والكلى حركى.

أقذف نفسى فى الماء دون خوف. وأطفو فوقه وأنا أضرب فوقه تدريجياً. وأتكيف مع هذا الوضع الجديد، وأتعلم السباحة، وأتعلم المشى كما أتعلم السباحة. وكذلك أتعلم ركوب الخيل بالتماهى مع حركة الحصان، وركوب الجمل بالتماهى مع حركة الجمل[2].

وقد يضرب المثل على نحو تتخيل، وهى حكاية أو موقف وليس صورة فنية تقوم على الاستعارة والمجاز. يضرب المثل على الدور الاجتماعى للوظيفة الأسطورية بسيدة فى طابق علوى لفندق. أرادت النزول على السلم، ثم فُتح فجأة الحاجز أمام المصعد. وهو لا يُفتح إلا إذا توقف المصعد أمام الطابق. واعتقدت السيدة أن المصعد هناك وهرعت لأخذه وفجأة اندفعت إلى الوراء. فقد ظهر عالم المصعد فجأة، ودفعها إلى السلم. وفى هذه اللحظة انتبهت وفاقت من "سرحانها"، وأدركت أنه لا يوجد لا مصعد ولا عامل مصعد. فقد عطل المصعد، وفتح الحاجز حيث كانت السيدة، فى حين أن المصعد كان أسفل المبنى. فقد هرعت على الخلاء. هل يقال إن المعجزة أنقذتها؟ لقد فكرت السيدة فى واقعة فعلية لأن الحاجز قد فتح بالفعل. وكان يمكن للمصعد أن يكون فى الطابق. إدراك مكان المصعد الحالى هو الذى أنقذها من خطئها. وإذا تأخر هذا

---

(١) Ibid., P. 212.

(٢) DIC., PP. 193-4.

الإدراك لاستمر التفكير الخاطىء. وانبثقت الشخصية الغريزية النائمة وراء الاستدلال. أدركت الخطأ، وحدث رد الفعل عليه. وبسرعة هرعت إلى الخلف، وتلاشت الإدراك الخاطىء[1].

وهذا يدل على أن العالم إدراك، ثم يصبح الإدراك بديلاً عن العالم. وهو رأى المثاليين مثل بركلى. وما تسميه الظاهريات القصدية، الإيماء المتبادل بين الذات والموضوع. وهو ما سماه علماء النفس الهلوسة، بقاء الصورة بالرغم من غياب الموضوع، وإسقاط العالم الداخلى على العالم الخارجى.

وعندما أتنزه أول مرة مثلاً فى مدينة أقيم فيها تحدث الأشياء المحيطة بى انطباعاً يدوم وانطباعاً آخر يتغير باستمرار. كل يوم أدرك نفس المنازل، ولأننى أعرف أنها نفس الأشياء، فإنى أشير إليها دائماً بنفس الأسماء. وأتخيل أنها تظهر دائماً بنفس الطريقة. ومع ذلك إذا ما رجعت إلى الانطباع الذى حدث عندى منذ عدة سنوات فإنى أندهش من التغير الفريد الذى حدث فيه والذى لا يمكن تفسيره أو فهمه. ويبدو أن هذه الموضوعات التى أدركتها دائماً وانطبعت فى ذهنى بلا توقف انتهت إلى أنها أعارتنى شيئاً من وجودى الواعى. فقد عاشت قبلى، وشاخت مثلى. وليس هذا وهما خالصا لأن انطباعات اليوم مماثلة تماماً لانطباعات الأمس. فالوجود هو اتصال الانطباعات به. والتواصل بين الموجودات ليس فقط فى المكان بل فى الزمان. والتغير فى الموجودات هو تغير فى الاحساسات. ثم تتراكم الاحساسات وتصبح وجوداً بديلاً وكأن الوجود الخارجى قد وضع بين قوسين بتعبير هوسرل[2].

---

(١) DSMR., p. 124-5.

(٢) Ibid., p. 96.

فلنتخيل شخصاً يدعى كى يقوم بفعل حر فى ظروف خطيرة يسمى بطرس. والسؤال هو إذا كان الفيلسوف بولص الذى يعيش فى نفس العصر أو فى عصر سابق وهو على علم بكل الظروف التى عاش فيها بطرس، إذا كان يستطيع أن يتنبأ بيقين اختيار بطرس لما فعله؟ فالسلوك الإنسانى سلوك حر لا تمليه عليه الظروف. وقد تؤدى ظروف متشابهة لفعلين مختلفين لشخصين متباينين[١].

ولإثبات الحرية أقف مثلاً لأفتح النافذة. وبمجرد الوقوف أنسى تماماً ماذا يجب أن أفعل وأظل ساكناً. فالحرية ليست قرارا مسبقاً بل هو فعل آنى[٢].

## ٤- التجارب الذاتية.

وهى التجارب الواقعة أو الممكنة التى يستعمل فيها برجسون ضمير المتكلم المفرد أو الجمع. وأحياناً يستعمل ضمير المخاطب كى يشدك المستمع فى الملاحظة ومشاهدة التجربة. فمثلاً. إذا مررت ببصرى على طريق مرسوم على خارطة فلا شىء يمنع من الرجوع لمعرفة إذا ما كان يتشعب فى مكان ما. والزمان ليس خطا نسير عليه[٣]. يمكن إذن تخيل المكان كخط ولكن الزمان ليس كذلك.

ويلجأ برجسون إلى طريقة الاستبطان. فعندما نغلق العينين، ونمسح باليدين مسطحاً ما فإن احتكاك أصابعنا بهذا المسطح خاصة لعبة التمفصلات المتعددة تعطينا عدة احساسات تتمايز فيما بينها بصفاتها، وتمثل نوعاً من النظام فى الزمان. فالإحساس بالأصابع يعطى انطباعاً بالمكان مختلطاً بالزمان، فى المكان

---

(١) DIC., P. 139.

(٢) Ibid., p. 120.

(٣) DIC., p. 136.

لتغير الخشونة والليونة، وفى الزمان لبناء الإدراك الحسى فى أكثر من زمانين كما تساءل الأشاعرة من قبل هل يبقى العرض زمانين؟ [1].

ومن أجل وضع هذا الحجاج فى صورة أدق فلنتخيل خطاً مستقيماً ممتداً إلى ما لا نهاية، وفوقه نقطة مادية ( أ ) ننتقل عليه. فإذا ما شعرت بنفسها فإنها تشعر بأنها تتغير لأنها تتحرك. وتدرك التتابع. فهل يأخذ التتابع شكل الخط؟ نعم، بلا شك بشرط أن ترتفع قليلاً فوق الخط الذى تسير عليه، وتدرك فى نفس الوقت نقاطاً عديدة متجاوزه. وعلى هذا النحو تتكون فكرة المكان. وفيه تتم التغيرات الحاصلة وليس فى الديمومة الخالصة [2].

وأفضل مثل للخلط بين المكان والزمان هو الساعة التى تدور عقاربها فوق الميناء وفوق خطوط أو ساعة الحائط التى يهتز بندولها يميناً ويساراً فى إيقاع منتظم. أقول أنقضت دقيقة. وأعنى أن البندول تحرك ستين مرة أدركها جميعها مرة واحدة بالحدس واستبعد فرض التتابع[3].فالزمان ديمومة وليس خطوطاً منقسمة.

وعندما أتابع بالعينين ميناء ساعة الحائط فإن حركة البندول التى تطابق ذبذبته لا تقيس الديمومة. فالبندول ليس فى الشعور بالزمان بل فى المكان. فإذا استبعد البندول تظل الديمومة فى الشعور كتيار متصل[4].

وفى الصباح عندما تدق الساعة التى استيقظ فيها دائماً يحدث عندى

---

(١) Ibid., p. 74.

(٢) Ibid., pp. 76-7.

(٣) DIc., p. 78.

(٤) Ibid., p. 80.

الانطباع الذى تحدث عنه أفلاطون وهو أن المعرفة تذكر والجهل نسيان[1].

وما ينطبق على السمع ينطبق أيضاً على الشم. فلا ثبات خطأ المبدأ الارتباطى أشم رائحة وردة فتهيج فىّ ذكريات مختلطة منذ الطفولة. ولم تستدع رائحة الورد هذه الذكريات لأنه لا توجد بينها علاقة علة ومعلول بل هناك استدعاء حر لا يخضع لقانون[2].

ويضرب المثل بتجارب علمية ممكنة لتوضيح افتراض ما، مثل تجربة قياس الضوء: شمعة موضوعة على بعد معين من قطعة من الورق تضيؤها أربع شمعات، ثم إطفاؤها واحدة تلو الأخرى. نقول إن سطحها ظل أبيضاً ولكن ضوءها نقص. والواقع أن الإنسان يعلم أن شمعة قد انطفأت. وإن لم يعلم فقد لاحظ مرات عديدة تغيراً مشابهاً على سطح أبيض تقل عنه الإضاءة. ثم يتجرد الإنسان من ذكرياته وعاداته اللغوية. حينئذ لا يدرك بالفعل إلا قليلاً من مساحة الضوء بل طبقة من الظل تطبق بهذا السطح عندما تنطفأ الشمعة. وهذا الظل واقع بالنسبة للشعور مثل الضوء. فإذا أطلق لفظ "أبيض" على السطح الأول المنير فإن من الضرورى إطلاق لفظ آخر على ما ترك، دقيقة من البياض...[3]. وبالتالى إدراك التغير ليس فى المكان بل فى الرؤية، وبقاء الصور المتتالية فى متصل واحد وليس كنقاط متتالية فى المكان. فالضوء والظل رؤية أى النور والظلام وليس الأبيض والأسود.

ويضرب المثل بتجارب قياس الضوء مرة أخرى بشمعة موضوعة على

---

(١) Ibid., p. 126.

(٢) Ibid., pp. 121-2.

(٣) DIC., pp. 39-40.

بُعد معين من قطعة ورق، تضيؤها بطريقة معينة، فإذا ما تضاعفت المسافة يتبين أن الإنسان فى حاجة إلى أربع شمعات من أجل إثارة نفس الإحساس. والنتيجة أنه من أجل تضعيف المسافة دون زيادة فى درجة الضوء يقل الضوء عن ضوء الشمعات الأربع. ومن الواضح تماماً أن الأمر يتعلق هنا بالأثر الفيزيقى وليس النفسى(١).

والتجربة مثل واقعى كما أن المثل واقع افتراضى. فقد وضع دلبوف ملاحظاً أمام ثلاث حلقات لها مركز واحد ببريق مختلف. وسمح له بإجراء خاص، جعل كل درجات الضوء بين الأبيض والأسود فوق هذه الحلقات(٢)، وذلك يثبت أن الإدراك للضوء غير الشىء المضىء. الأول بفعل الحواس، والثانى "بين قوسين".

ويلجأ برجسون إلى ذكرياته الخاصة لبيان أن العقلية البدائية موجودة أيضاً عند الإنسان المتمدن مثل ركوبه أول مرة الدراجة ووقوعه منها، وتحويل ذلك إلى تفسير إنسانى وليس إلى قوانين فى الحركة والتوازن والثقل. كما يحلل وقع الخبر على نفسه ذات صباح يوم إعلان ألمانيا الحرب على فرنسا فى الرابع من أغسطس ١٩١٤. فالحوادث ليست فقط وقائع بل آثاراً وحالات للشعور(٣).

---

(١) Ibid., p. 41.

(٢) DIC., p. 41-2.

(٣) DSMR., p. 212.

# الفصل الرابع

# البيئة الفلسفية

لم تأت فلسفة برجسون من فراغ بل هى رد فعل على التيارات الفلسفة فى عصرها، عقلانية ومادية العصور الحديثة وعلوم الحياة المعاصرة. وهى نفس التيارات التى خلقت الظاهريات. فبرجسون وهوسرل يمثلان نهاية العصور الحديثة كما يمثل ديكارت بدايتها.

وإذا أتت النزعة الروحية عند برجسون من التراث الفرنسى عند مين دى بيران ورافيسون فإن النزعة الواقعية أتت من الفلسفة الإنجلوسكسونية التى طالما كانت إغراء للفلسفة الفرنسية وإكمالاً لها منذ فولتير وفلاسفة دائرة المعارف. لذلك ارتبط العقل فى الفلسفة الفرنسية بالحس، والمثال بالواقع، وكان مشروع رافيسون الجمع بين النزعتين الروحية والوضعية كما حاول دى بيران منذ القرن الثامن عشر إثبات النفس من خلال البدن وإلتقاء كليهما فى تجربة الجهد والمقاومة.

١ - **الفلاسفة الكبار: رافسيون، وليم، جيمس، كلودبرنار.** ويمثل الفلاسفة الثلاثة الذين اختارهم برجسون للكتابة عنهم فى "الفكر والمحرك" التيارات الثلاثة فى الوعى الأوروبى. التيار المثالى أو العقلى الذى يمثله رافيسون بالرغم من محاولته الجمع بين الروحية والوضعية، والتيار الواقعى أو العلمى الذى يمثله كلود برنار بالرغم من محاولته توسيع مفهوم التجربة، والتيار الشعورى أو النفسى الذى يمثله وليم جيمس.

أ- **رافيسون**[١]. ورافيسون هو أستاذ برجسون المباشر. خلفه برجسون فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم الإنسانية والاجتماعية وطباقاً للتقليد، كتب عنه تقريظاً بمجرد أن شغل كرسيه. ومن الصعب أن يكتب فيلسوف عن فيلسوف آخر دون

---

(١) La Vie et L'oeuvre de Ravaisson, PM., pp. 253-91.

قراءته ووضعه في إطار الفيلسوف الكاتب، من أجل التوضيح والتطوير في آن واحد.

وهو تقرير تقليدي عن حياته وأعماله الثلاثة الرئيسية "محاولة في ميتافيزيقيا أرسطو"، ورسالته للدكتوراة "في العادة"، و"تقرير حول الفلسفة الفرنسية" وأخيراً "الوصية الفلسفية"[1]. وهو مملوء بأسماء الإعلام يتقدمها بطبيعة الحال رافيسون ثم كوزان مؤرخ الفلسفة، ثم أرسطو، ثم ليوناردو دافنشي. فرافيسون فيلسوف في طبع فنان. وأعدته أمه كي يكون رساماً. ثم يأتي ميشليه مؤرخ آخر للفلسفة، ثم سقراط وشبلنج[2].

ولد رافيسون في ٢٣ أكتوبر ١٨١٣ في مدينة نامور. وكان أبوه صرافا فيها. غادرها بعد حوادث ١٨١٤. وربته أمه وخاله موليان. ورأى فيه وهو في

---

(١) عنوان المقال "حياة فيلكس رافيسون- موليان وأعماله" ظهر في تقارير الأكاديمية للعلوم الإنسانية الأخلاقية والاجتماعية في ١٩٠٤، جـ١، ص٦٨٦. وبعد أن قرأه برجسون في الأكاديمية، نشر بعد ذلك كمقدمة لكتاب "وصية رافيسون وشذراته" عام ١٩٣٢. وقد كتب جاك شيفالييه أن برجسون فكر في إجراء بعض التعديلات. ثم قرر نشر المقال كما هو بالرغم مما وجه إليه من نقد بأنه قرأ رافيسون قراءة برجسونية. ويعترف برجسون بأن هذه القراءة كانت أفضل وسيلة لتوضيح رافيسون بتطويره.

(٢) محاولة في ميتافيزيقيا أرسطو(١١)، أرسطية (٤)، أرسطي(١)، التقرير (٨)، في العادة(٥)، الوصية(٤). كوزان(١١)، ليونارد دافنشي(٧)، أفلاطوني(٧) أفلاطون (٦)، رافيسون (٩٠)، أرسطو (٢٢)، موليان (٤)، ميشيليه (٣)، سقراط، شبلنج، بوريه Poret، فيلمان(٢)، فيثاغوري، القديس أوغسطين. ديكارت، ليبنتز، جيزو، سانت هيلير، كينيه، آدم سميث، الفريد دي موسيه، بلزاك، لامارتين، شاتو بريان، دافيد، أنجرAngers، كومت، كلود برنارد، بسكال، بوترو بستالوتزي، وآخرون...(١)، الرواقية (١).

سن الثامنة ميولاً رياضية وجمع التحف القديمة والتاريخ، ومواهب أخرى أهمها البساطة واليسر. وأتم دراساته فى كلية رولان، وغادرها عام ١٨٣٢. كان طالب لامعاً. حصل على عدة جوائز فى المسابقات العامة، خاصة جائزة الشرف فى الفلسفة. كان أستاذه بوريه قديرا فى الفلسفة وتلميذتً للفلاسفة الاسكتلنديين. عرف كوزان أستاذ الفلسفة فى السربون الذى قدره وعينه مدرساً مساعداً. وكتب رافيسون عدة محاولات فلسفية ومنها "فى المنهج فى الفلسفة" الذى حصل على جائزة ١٨٣٢. وهو الموضوع الرئيسى عند برجسون فى "المقدمة". بجزئيها فى "الفكر والمحرك"(١).

ولما أسست أكاديمية العلوم الإنسانية والاجتماعية عام ١٨٣٢، أقترح كوزان عضو الأكاديمية مسابقة بعنوان "ميتافيزيقيا أرسطو"، لبيان أهميته وأثره على المذاهب الفلسفية التالية، والخطأ والصواب فيه، وما تبقى منه فى العصر الحاضر. فدخل رافيسون المسابقة ببحثه "رسالة فى ميتافيزيقيا أرسطو" فى جزأين. صدر الأول عام ١٨٣٧، والثانى بعده بتسع سنوات عام ١٨٤٦.

وأرسطو عبقرية نسقية، لم يبن نسقا. يحلل التصورات ولا يقدم تركيباً. يأخذ الأفكار المتضمنة فى اللغة ويجددها ويعيد تفصيلها طبقاً للمعطيات الطبيعية ويطورها. ويسير تدريجياً. حتى يكتمل الموضوع للبحث عن العناصر المتضمنة فى الفكر أو الوجود: المادة، الصورة، العلية، الزمان، المكان، الحركة...إلخ. يبحث تحت الأرض عن الأسس كى يتقدم إلى الأمام، ويظهر ما يخفى منها. ولم يتوقف رافيسون عند كل مشكلة بل اكتفى بالمسار العام كما يفعل الفيلسوف.

فى الجزء الأول عرض ميتافيزيقيا أرسطو ككل واحد منظم، والتعبير عنه

---

(١) بوريه Poret . Ibid., pp. 253-5

بلغة سهلة وسيالة وكأن أرسطو نفسه يعرضها كتجارب معاشة بصرف النظر عن مدى دقة الترجمات أو التحليلات التفصيلية كما يعرفها مؤرخ الفلسفة الوضعى. وفى الجزء الثانى مقارنة ميتافيزيقيا أرسطو بالفكر اليونانى والتعرف على الروح الأرسطية عبر التاريخ.

بدأ الفكر اليونانى حسياً بالبحث عن العنصر الحسى فى الطبيعة. ووجده فى العناصر الأربعة. ثم وجده الفيثاغوريون فى الأعداد، والأفلاطونيون فى المثل، ثم أسسها أرسطو فى العقل والواقع بمنهج فلسفى حتى أصبح هو الفلسفة ذاتها. وهو أشبه بما فعله ابن رشد فى تأريخه للفلسفة اليونانية فى إيقاع ثلاثى من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو.

ثم استمرت الروح الأرسطية عند الإسكندرانين مع اختلاف واضح بين أرسطو وأفلاطون، وتفضيل أفلاطون على أرسطو. واتضح أن هناك طريقتين للتفلسف الأولى خارجية عقلية، والثانية باطنية حدسية، وهى تفرقة برجسون قارئاً رافيسون. الأولى مجردة، والثانية عيانية.

لقد حلل رافيسون "ميتافيزيقيا أرسطو" كتابا كتاباً دون تركيبها كنسق كلى. وأكمله بأفلاطون الجانب المقابل حتى تكتمل الحقيقة. فالفلسفة هى الجمع بين رأيى الحكيمين كما فعل الفارابى من قبل وكما حاول رافيسون فى الفلسفة المعاصرة فى الجمع بين الروحانية والمادية، بين المثالية والواقعية دون أن يشق طريقاً ثالثاً كما فعل برجسون وهوسرل.

وقد استرعت هذه المحاولة انتباه فلاسفة السربون أو الكوليدج دى فرانس

ى ذلك الوقت مثل جيزو، وكوزان، وفيلمان، سانت هيلير، كينيه، وميشـــليه[1]. اعتبروا رافيسون أحد كبار فلاسفة النقد. وأصبح أحد وجهـــاء المجتمـــع مـــع فنانين والأدباء والأمراء والأميرات، مثل: ألفريـــد دى موســـيه، بلـــزاك، لا ارتين، شاتو بريان [2].

ذهب رافيسون إلى ألمانيا لمقابلة شبلنج. فرافيسون هـــو شـــبلنج فرنســـا. خضع لتأثيره. كان شبلنج يوحد بين الروح والطبيعة كما يريد رافيسون. وكان سطو إمامهما الأول فى الجمع بين العقل والطبيعة، بين المنطق والتجربة.

وتأثر رافيسون بليوناردو دافنشى بعد أن بدأت أمه توجهه نحو الرسم. فقد انت هى أيضاً فنانة ورسامة. وخصصت له الرسام بروك لتعليمه فن الرســـم، كذلك الرسام شاسيريو[3]. وكان كلاهما من تلاميذ الرسام المشهور دافيد، رسام ثورة الفرنسية. تعلم فن الرسم فى عصر النهضة الإيطالى. وكان النموذج هو ناردو دافنشى فى كتابه "رسالة فى الرسم". وكان رافيسون يقتبس منه عبارة ن رسم الكائن الحى يتبع خطاً متموجا يميز كل كائن حى. فقد خلقـــت الـــنفس بدن على صورتها ومثالها. وتلك عظمة لوحة "موناليزا". كل عمل فنـــى لـــه ديته. الفن ميتافيزيقيا تشكيلية، والميتافيزيقيا تفكير على الفن. ومن ثم لا فرق ن أرسطو وليوناردو دافنشى.

---

١) جيزو Guizot، كوزان Cousin، فيلمان Villemain، سانت هيلير Saint –Hilaire، كينيه Quinet، ميشيليه Michelet.

٢) ألفريد دى موسيه Alfred de Musset، بلـــزاك Balzac، لامـــارتين La Mertine، شاتو بريان Chateau briand .

٣) Ibid., pp. 263-8. بروك Broc، شاسيرو Chasséreau .

وكتب رافيسون رسالة للدكتوراة "فى العادة" كنوع من فلسفة الطبيعة. فالعادة تبدأ بالاكتساب ثم تتحول إلى طبيعة ثانية، تبدأ بالآلية ثم تتحول إلى الفطرة. وهى ثنائية برجسون الشهيرة بين الآلية والحيوية. فالآلية وحدها لا تكفى. أصبح بعدها رافيسون عضواً بأكاديمية العلوم الإنسانية وعمره أربعون عاماً، ولكن لم يشغل على الإطلاق كرسى الفلسفة.

وكان فيكتور كوزان مشرفاً على التعليم الفلسفى. ويشجع رافيسون على الاهتمام بوضع الفلسفة فى المؤسسة التعليمية فى فرنسا. إذ يتوجه الفكر نحو القول، والقول نحو العمل. وبعد تعيين رافيسون مفتشاً على المكتبات أصبح بعدها مفتشاً عاماً فى التعليم العالى. وكتب أثناءها عدة تقارير مثل "تقرير عن مكتبات محافظات الغرب" فى ١٨٤٦، "قائمة بمخطوطات مكتبة لاون ١٨٤٦"، "تقرير عن أرشيف الإمبراطورية وتنظيم المكتبة الإمبراطورية". ثم اختير بعدها عضواً فى "أكاديمية الآثار"، كتب بعدها تقريراً عن "الرواقية"(١).

والأشهر من هذه التقارير هو "تقرير الفلسفة الفرنسية بمناسبة معرض ١٨٦٧ وتقدم العلوم والآداب والفنون فى القرن التاسع عشر. استعرض فيه رافيسون أهم الأعمال الفلسفية فى هذا القرن مبيناً أن هناك طريقتين فى التفلسف. الأولى التحليل وتقسيم الشىء إلى عناصره المصمتة والتبسيط والتجريد. وهذه هى المادية. والثانية تهتم بتنظيم العناصر وعلاقاتها واتجاهها. وهذه هى الروحانية. وهى ثنائية برجسون بين العقل والحدس. لا توجد الفلسفة فى الميتافيزيقيا وحدها بل أيضاً فى العلم الطبيعى والرياضى بل وفى الفن كذلك. فالكل تعبير عن روح العصر بمعنى هيجل. يستأنف رافيسون محاولة

---

(١) Ibid., pp. 268-72.

أوجست كومت فى "محاضرات فى الفلسفة الوضعية" فى الفلسفة وكلود برنـــارد وفى "مقدمة فى الطب التجريبى". وقد كان لهذا التقدير أكبر الأثر علـــى تعلـــيم الفلسفة[١].

ثم أرادت وزارة التعليم العام الكتابة فى تعليم الرسم. فكتب رافيسون مقالين "الفن" و"الرسم" ونشرهما فى القاموس التربوى عام ١٨٨٢، مبينـــاً أن الفلســـفة والفن ينبعان من وعى الفيلسوف والفنان، وليسا تطبيقا لنماذج مسبقة. وهو مـــا عرضه برجسون فيما بعد. وهو التيار الذى بدأه بستالوتزى فى الفن الطبيعـــى متبعاً مسار الأشياء الطبيعية وخطوطها وأشكالها فى أشكال رياضية كما تراها العين. فالجمال فى الشكل.

ثم نشر عام ١٨٨٧ "فلسفة بسكال" من أجل الربط بين الفلسفة والمســـيحية والفن القديم والاعتراف بدور المسيحية فى العالم[٢]. وكان لرافيسون أبلغ الأثر على تعليم الفلسفة فى الجامعة، والربط بينها وبين الفن والعلم والدين من منظور حضارى كلى شامل[٣].

ثم كتب رافيسون عدة تقارير عن التماثيل القديمة مثل تمثال فينوس لميلـــو بعد تعيين نابليون الثالث له محافظاً لقسم الفن القديم والنحت الحديث فى اللـــوفر لحفظه من مخاطر القذف وحماية الآثار النادرة وترميمها. ويمثل الفـــن القـــديم مجموع الفضائل الإنسانية مثل التقوى والكرم والعظمة والحب[٤].

---

(١) Ibid., pp. 272-6.

(٢) Ibid., pp. 276-80.

(٣) Ibid., pp. 280-3 .

(٤) Ibid., pp. 283-6. Vinus de Milo.

وأنهى رافيسون حياته بكتابه "الوصية الفلسفية عام ١٨٨٧" متضمنة أفكاره الرئيسية فى محاولاته وتقاريره السابقة، منضماً إلى عظماء الفلاسفة من طاليس إلى سقراط، ومن سقراط إلى أفلاطون وأرسطو، ومن أرسطو إلى ديكارت وليبنتز فى مسار فلسفى واحد سماه ديكارت "الأريحية" ومتبعاً نصيحة أوغسطين أحبوا ثم افعلوا بعد ذلك ما تشاءون" ليس الشر فى لا مساواة الظروف بل فى الآثار الناجمة عنها. ومعالجة الشر بالإصلاح الخلقى والانسجام الطبقى والتعاطف المشترك عن طريق التعليم الحر من أجل غرز قيم الحرية، وتحرير النفس من العبودية خاصة الأنانية ولا فضيلة أسمى من "الزهد" كما هو الحال عند آدم سميث. وهو ما سمى فى اللاهوت المسيحى "الرحمة". وتتجلى الرحمة الإلهية فى الحب الإنسانى. ويشعر الفنان والشاعر بذلك كما يشعر الفيلسوف.

يبدأ رافيسون من أرسطو ولكن بتفسير جديد. وربما يثبت التاريخ أن مثله الأعلى كان أكثر تقدماً من مثل عصر برجسون الذى يحاول تفسير الحيوى بالآلى. ومن ثم على علماء الفيزياء أن يفسروا المصمت بالحى. وعلى علماء البيولوجيا أن يعلموا أن الفكر قادر على فهم الحياة. وعلى الفلاسفة أن يدركوا أيضاً أن العموميات ليست فلسفة. وعلى المربيين تعليم الكل قبل الأجزاء. وعلى التلاميذ البداية بالكمال. وعلى الإنسان التخلى عن الأنانية والكراهية، وأن المحرك الطبيعى للإنسان هى الأريحية [١].

---

(١) Génorisilé الأريحية .Ibid., pp. 286-291

**ب- حول برجماتية وليم جيمس (الحقيقة والواقع)**[1]. ربما يكون وليم جيمس أقرب الفلاسفة الأمريكيين إلى برجسون. كانت بينهما معرفة متبادلة عن طريق الرسائل وإن لم يتمكنا من اللقاء فى لندن.

وقد حرف فكر وليم جيمس كثيراً وأسئ فهمه والتقليل من شأنه. ولا يمكن فهم إلا إذا تغير مفهومنا عن "الواقع" بوجه عام مع التمييز بينه وبين مفهوم العالم ومفهوم الكون. فالعالم بسيط ومركب فى آن واحد. العالم يوحد بين الأشياء بصرف النظر عما إذا كان الإنسان مادياً أو روحياً أو مؤمناً بوحدة الوجود. كما يحدد بعض المبادىء البسيطة لتفسير عديد من الأشياء المركبة. والعقل بطبيعته بسيط يقوم على مبدأ اقتصاد الجهد والتفكير فى الطبيعة بأقل جهد.

والأهم من ذلك هو ما تعطيه التجربة. فبينما يعطى العقل طبقاً للعادة العلل والمعلولات فإن ما يعيطيه العقل، "ما يكفى". وما تعطيه الطبيعة" أكثر مما يكفى"، أكثر من هذا، وأكثر من ذلك، وأكثر من كل شىء. فالواقع عند جيمس فيّاض ومعطى وواهب كما يقول هوسرل فى الشعور أنه واهب المعانى. صحيح أن التجربة غير متسقة ولكن العلاقات بين الأشياء علاقات واقعية يمكن ملاحظتها مباشرة ولو بطريقة عائمة.

وهذا هو معنى التعددية عند وليم جيمس. تصور القدماء العالم مغلقاً ومتوقفاً ومتناهياً. وهو ما يتطلب العقل. فى حين يراه المحدثون لا نهائياً. يرى

---

(١) PM, pp. 239-51. وقد كتب هذا المقال كمقدمة للترجمة الفرنسية لكتاب وليم جيمس، "البرجمانية" التى قام بها لو بران E. Le Burn والتى صدرت فى باريس عند فلاماريون عام ١٩١١.

جيمس أن "التجريبية الجذرية" أو التجريبية الخالصة لا تجعل الواقع متناهيا أو لامتناهياً بل غير محدد. يسيل دون تحديد اتجاه واحد حتى ولو كان هو نفس النهر الذى يسيل. يستريح العقل لأنه يرى العالم صوراً فى مرآته ولكن الإنسان نفسه بإرادته وحواسه لا يشعر بالرضا. فالعقل يتجاوز التجربة. ودوره فى مد معطيات التجربة نحو العموم من أجل تصور علاقات لا يمكن إدراكها. لذلك يقلل معظم الفلاسفة من قدر التجربة ويضفونها مع العاطفة والإرادة. وربما يمدونها أكثر حتى الفكر. ما يطلبه جيمس هو عدم إضافة شيء افتراضى على التجربة حتى لا يشوهها وعدم بتر ما هو صلب فيها. فالإنسان كله هو الهدف، دون أن يقع فيما تصوره فشنر أن الأرض كائن مستقل يسرى فيه نفس إلهى. ومن ثم يرفض جيمس نقيضيه: رد التجربة إلى أعلى منها فى العقل كما يفعل كانط، وردها إلى ما هو أقل منها فى المادة كما يفعل فشنر[1]. يُؤثر جيمس مثل هوسرل الطريق الإنسانى الثالث بين الدفع والرد. وهو عالم التجربة خاصة التجربة الدينية. يشعر بالحقائق ويعيشها قبل أن يُفكر فيها[2].

هناك دائماً حقائق عقلية وأخرى شعورية. وهناك حقائق جاهزة وأخرى مازالت فى دور الخلق والتكوين. تعتمد على الإرادة. والواقع هو الواقع الأصلى ولا توجد نسخ منه فى الذهن. الواقع وحقيقته شيء واحد فى الشعور، أصل واحد وليس أصلا وصورة. الحقيقة فى الأشياء والوقائع، والأشياء والوقائع

---

(١) فى هذا المقال ترد الأسماء كالأتى: وليم جيمس(٢٣)، كانط (١٢)، كانطية: فشنر، أديسون، كرسوتوف كولمب(١)، البرجماتية، أمريكا(١). وفى الهامش، جيمس (٤) سرقاط، بوتور (١)، عالم تعددى، البرجماتية.

(٢) Ibid., pp. 239-44.

حقيقة. بل إن كانط نفسه يقوم بذلك. يبدأ بالتجربة ويحيلها إلى العقل عبر الصور والمقولات. فى التجربة هناك تيار الظواهر. فإذا كانت الفلسفة لديها ميل إلى اعتبار الحقيقة تنظر إلى الوراء فإن جيمس يجعلها تنظر إلى الإمام. الحقيقة فى الطبيعة والطبيعة فى الحقيقة. فى النظريات الفلسفية الأخرى الحقيقة الجديدة اكتشاف، وعند وليم جيمس اختراع مثل الاختراعات العلمية ولكن تكون الحقيقة حية تكون جذورها فى الواقع. والواقع هو الأرضية التى تنبت فيها الحقيقة. الحقيقة فى البرجماتية تخلق تدريجياً بجهد الأفراد. بناء الروح من صنعنا. وهو تطوير لما بدأه كانط. فعند كانط تعتمد الحقيقة على بناء الذهن، وتضيف البرجماتية أن بناء الذهن الإنسانى نتيجة للمبادرة الحرة لبعض الأفراد. لا يعنى ذلك الوقوع فى النسبية أو الفردية. فكل حقيقة مسار فى الواقع فى اتجاهات متعددة طبقاً للإرادة والمقاصد الإنسانية [1]. بين الحقيقة الوجدانية والحقيقة العلمية نفس الاختلاف بين القارب الشراعى والقارب البخارى، وكلاهما اختراع انسانى. الأولى بآلية بسيطة، والثانية بآلية أكثر تعقيداً. الحقيقة إذن تصور الواقع. وإن كانت الحقيقة عقلية فهو اختراع إنسانى لاستعمال الواقع بدلاً عن تقديمه. وإذا كان الواقع كلا متعدداً ومتحركاً من تيارات متقاطعة فالحقيقة أيضاً كذلك.

ليست البرجماتية نوعاً من الشك. ترد الحقيقة إلى ما هو أقل منها، وإخضاعها إلى منفعة مادية، وأنها لا تتجه نحو البحث العلمى المنزه. البرجماتية حب للحقيقة وتأسيس للعلم من التشريح إلى الفيزيولوجيا إلى علم النفس إلى الفلسفة. تلاحظ البرجماتية تجرب وتتأمل. وبما أن ذلك لا يكفى فإنها

---

(١) Ibid., pp. 244-51.

تفعل قليلاً كى تلم بالتجارب العادية والجهود التى تفوق الطاقة الإنسانية كى تتواصل حتى إلى ما بعد الموت كى تعمل لصالح العلم ولصالح الحقيقة.

**جـ: فلسفة كلود برنارد**[1]. ترجع أهمية كلود برنارد إلى نظريته فى المنهج التجريبى ونقده للتجربة الساذجة. فقد قام العلم الحديث على أساس التجربة. وقامت علوم الميكانيكا والفلك. ثم تأسست علوم الرياضة أيضاً على النتائج التجريبية والتحقق من صدقها بالحسابات. ثم استمرت العلوم فى القرن العشرين خارجة من المعامل دون أن تفقد الصلة بالتجربة. ومن ثم أراد كلود برنارد أن يصوغ لها المنهج التجريبى فى "مقدمة فى الطب التجريبى" كما فعل ديكارت فى مقال فى المنهج" فى بداية العصور الحديثة[2]. وتم تأسيس الفلسفة والعلم على هذا النحو من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين.

أراد كلود برنار أن يبين كيف تتعاون الفكرة مع الواقعة فى البحث التجريبى. تُدرك الواقعة، ثم تقترح الفكرة للتفسير، ثم يطلب العالم التحقيق من صدقها فى التجربة. وكلما استأنف التجربة يبقى مستعداً لترك الافتراض أو تعديله على الوقائع. البحث العلمى إذن حوار بين الروح والطبيعة. توقظ الطبيعة حب الاستطلاع. وتطرح عليها الأسئلة وتعطى أجوبتها. وللحوار منعطفات لا يمكن التنبؤ بها، مثيرة أسئلة جديدة تجيب عنها الطبيعة من جديد مقترحة أفكاراً جديدة، وهكذا إلى ما لانهاية. وعندما يصف كلود برنار هذا المنهج ويعطى أمثلة ويذكر التطبيقات لما يعرضه يبدو لنا بسيطاً وطبيعياً فتسهل الموافقة عليه.

---

(١) Claude Bernard Pm., pp. 229-37. خطاب ألقى فى احتفال ماثوبة كلود برنارد فى الكوليج دى فرانس فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٢.

(٢) كلود برنارد (٩)، ديكارت ، ماجندى Magendi(١).

وهذا يتطلب التفرقة بين الملاحظة الدقيقة والتعميم الجيد. وكثيراً ما تؤخذ التجربة وكأنها الوقائع الصماء. ثم يُؤخذ العقل ويقارب بينها ويرتفع بها إلى أعلى حد للوصول بها إلى القوانين الكلية. التعميم وظيفة، والملاحظة وظيفة أخرى. وهو خطأ شنيع لهذا المركب المصنع للفلسفة والعلم على حد سواء. فالوقائع ليست لها أهمية خادمة سلبية حتى يصل الذهن القادر على السيطرة عليها وإخضاعها للقوانين، وكأن الملاحظة العلمية لم تكن إجابة على سؤال دقيق أو غامض، وكأن الملاحظة كانت مجرد إجابة متناثرة على سؤال عشوائى، وكأن التعميم يعطى معنى ملائماً لخطاب ينقصه الاتساق. والحقيقة أن الخطاب إما أن يكون له معنى أو لا يكون. والتعميم ليس تركيزاً على وقائع مجمعة بل إن التركيب شيء آخر. بأنه عملية خاصة للنفاذ إلى الأشياء لاقتناص دلالتها. وروح التركيب قوة فائقة للذهن على التحليل. هذا المفهوم للبحث العلمى يقلل المسافة بين المعلم والمتعلم. فالاختراع مشترك بينهما. وحيث لا يوجد جهد شخصى وأصلى لا يبدأ العلم. هذه هو التفسير التربوى للبحث العلمى عند كلود برنارد. وعند الفيلسوف هناك شيء آخر، مفهوم معين للحقيقة، وبالتالى إمكانية الفلسفة[1].

ولا تعنى فلسفة كلود برنار ميتافيزيقا الحياة. إذ هناك بعض الفقرات لديه تنقد فكرة المبدأ الحيوى أو بتعبير برجسون الدافع الحيوى. إذ أن الحياة عنده ظواهر فيزيائية وكيميائية. وهناك فقرات أخرى تشير إلى الفكرة المنظمة والمبدعة التى تسرى فى الظواهر الحية وتتميز عن مادة الحياة الخام وربط الحياة بمبدأ مستقل. كذلك يبدو كلود برنار متردداً بين التصورين أو أنه يبدأ من

---

(١) Ibid., pp. 229-32.

الأول ليصل تدريجياً إلى الثانى. صحيح أن كلود برنارد ينقد اقتراض مبدأ حيوى ولكنه مع ذلك يستعمله ويراه. يرفض فقط الحيوية السطحية عند الأطباء والفزيولوجيين الذى يؤكدون وجود قوة قادرة على الصراع ضد القوى الفيزيقية، وفرض فعل خاص على الكائن الحى. وكان هذا عند التسليم بأن نفس السبب فى نفس الظروف فى نفس الكائن الحى لا تنتج نفس النتائج دائماً. ومن ثم لزم الاعتراف بالطابع المزاجى للحياة. وقد سلم ماجندى الذى حول من قبل الفزيولوجيا إلى علم بلا حتمية الظاهرة الحية. وضد هؤلاء يثبت كلود برنارد خضوع الوقائع الفزيولوجية إلى حتمية صارمة مثل حتمية الفيزياء والكيمياء. وينقد هؤلاء الذين يرفضون الاعتراف بأن الفزيولوجيا علم خاص متميز عن الفيزياء والكيمياء. ففى الكائن الحياة تمر الأشياء وكأن فكرة ما تتدخل وتوحد بين العناصر. وسواء نقد "المبدأ الحيوى" أو لجأ إلى "الفكرة الموجهة"، فإنه معنىّ فى كلتا الحالتين بشروط العلوم التجريبية. ينقد الفزيولوجيين الذين لا يريدون إخضاع الظاهرة الفزيولوجية للتجربة. وينقد الفيزيائيين الذين يخلطون الفيزياء والكيمياء(١).

لقد ظن الفلاسفة لمدة طويلة أن الواقع كل نسقى كمعمار ضخم يمكن للفكر بناؤه بفضل استدلال واحد وبمساعدة الملاحظة والتجربة. وبالتالى تكون الطبيعة مجموعة من القوانين متداخلة فى بعضها البعض طبقاً للمنطق الإنسانى. هى قوانين داخل الأشياء.ويتلخص الجهد الفلسفى والعلمى فى استخلاصها بالبحث عن الوقائع التى تغطيها.

ويعترض كلود برنارد على هذا التصور للعلاقة بين الوقائع والقوانين.

---

(١) Ibid., pp. 232-5.

وبالرغم من تأكيد الفلاسفة أن هذه النظريات هىمجرد اتفاقات أو مواضعات رمزية فى العلوم الإنسانية إلا أنه رأى مدى المسافة بين المنطق الإنسانى والمنطق الطبيعى. وإن لم يتم تحقيق الفروض فى الواقع فإنه لن يتم أى اختراع. والمتناقض فى العقل قد لا يكون كذلك فى الطبيعة. وقد لا تكون بساطة الفكرة مماثلة لبساطة الطبيعة. ليست الأفكار إلا وسائل للنفاذ إلى الظواهر. وتتغير بعد أن تؤدى دورها كما يتغير المبضع بعد أن يصبح ثلماً من كثرة الاستعمال. هذا الإيمان الشديد بالاستدلال الذى يؤدى بالفيزيولوجى إلى تبسيط مزيف للأشياء يرجع إلى غياب الإحساس بتعقيد الظواهر الطبيعية. النظريات بالنسبة للوقائع آليات جزئية ووقتية من أجل تقدم البحث العلمى. وتتغير النظريات بغيرها أوسع نطاقاً لتشمل وقائع أكثر. تستعبد المذاهب الذهن الإنسانى. ومن ثم فإن الفلسفة والعلم لا يمثلان مذهباً. الطبيعة هى الطبيعة، والذهن الإنسانى أقل اتساعاً منها. ومن ثم تتكسر هذه النظريات وتتبدل، وتقاس على قد الواقع. ويلاحظ أن برجسون يقرأ كلود برنارد من خلال فلسفته. ويجعل "مقدمة فى الطب التجريبى" موجها ضد العقل الذى يسود التجربة فى حين أنه ينقد التجربة الساذجة أو الجذرية التى تنكر أى جهد عقلى فى فهمها[1].

**٢- كتابات المجاملات.**

وبالرغم من تحذير برجسون من نشر أى مذكرات او رسائل أو مقالات أو أحاديث له بعد وفاته وكما دون ذلك فى وصيته إلا أن معظمها قد جمع بمناسبة المائوية الأولى لوفاته فى "كتابات وأقوال"، ثلاثة أجزاء[2]. لا تضيف جديداً على

---

(١) Ibid., pp. 235-7.

(٢) الجزء الأول (١٨٧٧-١٩٠٥). ويحتوى على ٣٦ مقالاً، وكان عمره (١٩-٤٦).

"البرجسونية" مثل "يوميات هوسرل". كان برجسون يفرق بين الأعمال الفلسفية التى يكتبها بنفسه فى حياته كفيلسوف، ويدقق النظر فيها كعالم، ويقرأ معظم أدبياتها حتى يستطيع أن ينقلها نقلة نوعية وبين الآراء والرسائل والمواقف الشخصية لبرجسون الإنسان العادى. كان برجسون عضواً بالأكاديمية الفرنسية يقدم تقاريراً عن المؤلفات المنشورة ليحيط بها الأعضاء علما[1]. ومن الصعب معرفة ما للموضوع المعروض وما لبرجسون[2].إنما هى قراءة برجسونية للموضوع وتمرينات على ظهور البرجسونية[3].

كان برجسون يلقى الكلمات فى المناسبات المختلفة، المدرسية والجامعية والأكاديمية. كان رجل مجاملات، يرد على الرسائل التى تصل إليه. ويعطى بعض الأحاديث الصحفية. ويقدم التعازى والشكر فى التأبين والاحتفالات

---

(١) الجزء الثانى (١٩٠٥-١٩١٥). ويحتوى على ٧٦ مقالاً، وكان عمره (٤٦-٥٦).

(٢) الجزء الثالث (١٩١٥-١٩٣٩)، ويحتوى على ٤٥ مقالاً، وكان عمره (٥٦-٨٠). ومجموعها ١٦٧ مقالاً ورسالة.

Bergson: Ecrits et Paroies, Textes ressemblés par R. M. Massé – Bastide., Vol. II, III, PUF., Paris, 1957.

(٣) وذلك مثل تقرير حول مؤسسة كارنو PM., pp. 182-6. والتقرير حول مسابقة جائزة هالفان ١٩٠٣/٧/٤. Ibid., pp. 200- 3. خطاب إلى جيوفانى بابينى ١٩٠٣/١٠/٤. Ibid., p. 204. مقابلة إميل لبرجسون EP., II, pp. 354-5. خطاب أمام قبر هنرى فرانك ١٨٨٨/١٢/٢. نشر فى ١٩١٢/٢/٢٥. خطاب بمناسبة انتخابه رئيس أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية EP. II., pp. 393-5. خطاب بمناسبة وفاة لودوفيج بوشيه، جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ١٩١٤/١/١٧، Ibid., pp. 396-7. خطاب بمناسبة وفاة شارل وادبجتون، العدد السابق، ١٩١٤/٣/٢١ Ibid., pp. 398-400.

الرسمية. مثال ذلك تقريظه للوزير إميل أوليفييه الذى حل برجسون محله فى الكوليج دى فرانس[1]. عرض أفكاره من خلال مؤلفاته ومآثره وخطبه. وكذلك الرئيس ويلسون الذى فى عهده أنشئت "عصبة الأمم".

ونموذج المجاملات هو الخطاب الذى ألقاه فى الأكاديمية الفرنسية يوم استقباله عضواً فيها خلفا للوزير "إميل أوليفييه". يقوم على ذكر المناقب لمؤرخ وكاتب سياسى ليس له باع فى الفلسفة. لذلك لم يستطع برجسون قراءته "برجسونياً" أو ذكر أى موضوع فلسفى فيه إلا فيما ندر. ولا تظهر فلسفة برجسون إلا فى أقل الحدود. منها أن الحرية خالقة، وأن الشعوب الحرة هى القادرة على الاختراع.

وهو خطاب طويل، أطول قسم فى "كتابات وأقوال" (الجزء الثالث). يثنى فيه برجسون على الآداب الفرنسية، والشعب الفرنسى، ورجال الدولة الفرنسية. فالفقيد رجل سياسة. لم يكذب ولم يكره أحداً فى حياته "أذكروا محاسن موتاكم". كان وزيرا فى ١٨٧٠. وشاهد مآسى حروب ١٨٦٦ بين فرنسا وألمانيا. ونظراً لغياب الفلسفة تحول الخطاب إلى فن الكتابه، وطريقة فى الأسلوب مع ذكر أسماء أدباء فرنسا مثل لا مارتين ونماذج من الآداب العالمية مثل "روميو وجولييت". فقد عُرف الفقيد بفن البلاغة. كتابه الرئيسى "الإمبراطورية الليبرالية" (سبعة عشر جزءاً)، يتضمن ذكريات شخصية. ويعتمد على كثير من النصوص المقتبسة منه كما يفعل الدارسون المبتدءون. تتخلله مجاملات لإيطاليا والأدب والفن والإيطالى ومدى تشابههما مع الفن والأدب الفرنسى. يغلب عليه تاريخ فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر مع موضوعات متناثرة عن الحرب

---

(١) ذُكر أميل أوليفييه ٢١ مرة، ويلسون (١٢).

والدستور. ويعادى ألمانيا لعدوانها المستمر على فرنسا. ويمتلأ بأسماء السياسيين والعسكريين ورجال الدولة كما فعل جيتون فى خطاب تأبين الجنرال فايجان. حدثت له رؤية وهو يحتضر وصاح "أيها الجنود، أيها الجنود" وكأنه يرى المعارك على الجبهة عام ١٨٧٠ كما صاح عمر من على المنبر، "يا سارية، الجبل، الجبل". وهى ظواهر التراسل الروحى عن بعد التى درسها برجسون لإثبات صدق التجربة الصوفية على نحو علمى تجريبى[١].

ونظراً لعدم وجود هدف إلا الثناء على الفقيد فقد اتسم الخطاب بالغموض وعدم وضوح هدف آخر إلا التقريظ. وهو ما لا يتفق مع منهج برجسون. بل إن برجسون يرفعه إلى مصاف كبار الكتاب الفرنسيين مثل بسكال وبوسويه. لم يتجاوز الخطاب المرثية كنوع الأدبى. ربما كان السبب فى ذلك المناسبة الرسمية، تأبين الفقيد الراحل ليحل العضو الجديد محله. وهى عادة كل الأكاديميات والمجامع اللغوية والعلمية، مجرد مناسبة عرضية بصرف النظر عن مدى دلالة الفقيد بالنسبة للعضو الجديد.

ومن ضمن المجاملات الإداريات التنظيمية لأوضاع الجمعيات والمؤسسات الثقافية فى أوروبا. فقد تحول برجسون إلى نجم اجتماعى. ألقى خطاباً ختامياً باعتباره رئيس اللجنة الدولية للتعاون الثقافى كما أوصت بذلك عصبة الأمم. ففى تقرير الجلسة الأولى، وصنف برجسون جدول الأعمال بخطة العمل، وقدم نتيجة البحث العام عن الحياة العقلية فى أوروبا ووسائل تقديم يد المساعدة إلى البلاد التى تكون فيها الحياة العقلية مهددة مثل روسيا بعد الثورة الاشتراكية فى

---

(١) ألقى الخطاب بتاريخ ١٩١٨/١/٢٤ Ep. III, pp. 461-84، فن البلاغة Eloquence. فايجان Weygan. أميل أوليفييه Emile Olivier

١٩١٧، والنمسا فى العصر الإمبراطورى. كما تحدث عن التنظيم الدولى للتوثيق العلمى (الببليوجرافى) الماضى أو المرحلى، والتعاون الدولى فى البحوث العلمية وفى التعليم الجامعى وواضعاً بعض التساؤلات فى النهاية[١].

وفى الجلسة الختامية، قدم برجسون خالص التهانى لأعضاء اللجنة ولعصبة الأمم فى خطاب اجتماعى يقوم على المجاملات. ويخلو من التحليل الفلسفى لأية رؤية فلسفية، أشبه بتقرير الإداريين[٢].

وقد صاغ نداءاً باسم عصبة الأمم من لجنة التعاون الثقافى إلى الجامعات والأكاديميات والجمعيات العلمية فى كل البلاد لصالح المثقفين النمسويين والحياة الثقافية فى النمسا"[٣].

وألقى برجسون الخطاب الافتتاحى كرئيس للجنة الدولية للتعاون الثقافى المنبثقة عن عصبة المم لوضع ميثاق للتعاون الثقافى بين الدول الأوربية ومساعدة البلدان التى فى حاجة إلى إزاحة موانع التعبير الحر[٤]. وكتب تقريراً عن الدورة الثانية. فبعد وضع جدول الأعمال وخطة العمل عرض لنتائج البحث عن شروط العمل الثقافى، ومساعدة البلاد التى يهدد فيها مثل هذا العمل. كما عرض نتائج أعمال اللجان الفرعية حول ثلاثة محاور: الأول التنظيم الدولى للتوثيق العلمى (الببليوجرافى) سواء للماضى أو الحاضر خاصة فى ميادين

---

(١) عصبة الأمم ١٩٢٢، EP. III, pp. 504-15.

(٢) الجلسة الأولى للجنة الدولية للتعاون الثقافى، صيف ١٩٢٢، الجلسة الثانية والأخيرة، السبت ١٩٢٢/٨/٥. EP. III, pp. 516-9.

(٣) عصبة الأمم عام ١٩٢٢. Ibid., pp. 520-2.

(٤) الدورة الثانية، الجلسة الأولى، ١٩٢٣/٧/٢٦. EP. III, pp. 540-1.

الفيزياء وفقه اللغة والعلوم الاجتماعية. وتشمل الفهرسة التحليلية وطبقاً للعناوين، مع التركيز على أهمية تبادل المطبوعات الرسمية والعلمية والأدبية وتأسيس مكاتب استعلامات، وإعفائها من الضرائب، ووضع فهرس دولي للأدبيات العلمية، ومجلة دولية علمية. والثانى التعاون فى البحوث العلمية. والثالث تبادل التقارير الجامعية، وتكوين مكتب دولى للتعليم الجامعى. ثم وضعت عدة تساؤلات للجنة فى الدورة الثالثة. وينتهى التقرير بمسائل إدارية واستكمال الأعمال(١).

وفى اقتراح آخر للجنة العلاقات الثقافية فى عصبة الأمم يؤكد برجسون على أهمية تبادل الطلاب والأساتذة والمطبوعات بين الجامعات من أجل التقارب بين الشعوب، وتسهيل المعادلات بين الشهادات وتخفيض رسومها(٢).

وفى مذكرة حول التبادل الدولى للمطبوعات يقترح برجسون الدعوة إلى عقد مؤتمر للخبراء لتنفيذ اتفاقية التعاون بين الدولة، ويضع برنامج لها من أجل تنفيذ بنود الاتفاق، وانضمام دول جديدة وتطويره. كما يقترح تاريخ الانعقاد ونفقات المؤتمر من مؤسسة سميثونيان بأمريكا، وإقامة علاقات مع جامعات أوربا الوسطى(٣).

وفى خطاب لبرجسون كرئيس للجنة إلى سكرتير الرابطة الدولية للمثقفين(٤)، وفى خطاب آخر من رئيس لجنة التعاون الثقافى إلى الرابطة الدولية

---

(١) عقدت الدورة الثانية فى جنيف، ١٩٢٣/٨/١٥، Ibid., pp.542-59.

(٢) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم ١٩٣٢، التقرير بتاريخ ١٩٢٣/٩/٢٦. EP., III, pp. 562-5

(٣) الجريدة الرسمية لعصبة الأمم ١٩٢٤، Ibid., 570-8.

(٤) محضر اللجنة التى عقدت فى ٢٥-١٩٢٤/٧/٢٩. Ibid., p. 579 .

لعدم استطاعة القراء فهم التفرقة بين العقل والحدس[١].

وفى رده على فردريك شاربان بين برجسون أن الدين أساسا عاطفة. لذلك كان التصوف هو تعبيره المثالى[٢]. وكتب تقريراً عن "دراسات فى تاريخ علم النفس والتصوف" لهنرى دلاكروا". وهى دراسة للصوفية الكبار الثلاثة: القديسة تيريزا ومدام جيون وسوزو. فالتصوف إبداع وليس تقليداً. وهو قادر على الوصول إلى المطلق بالحدس[٣].

وفى ملخص محاضراته عن "تخطيط لنظرية المعرفة" و"الروحية والحرية" يرفض برجسون المعرفة عن طريق التصورات والمفاهيم على طريقة كانط. وينتقد مفاهيم الزمان والمكان والعلمية مستعيداً معانيها فى الحس المشترك وهى معانيها الفلسفية. أما الروح، فهو مفهوم غامض لا يدرس إلا مم خلال تجلياته فى الإرادة والحرية وعدم التنبؤ والجدة لمعرفة ماهية الروح. كما يتجلى فى دراسة الظواهر شبة النفسية التى تبدو مرضية كما حاول ياسبرز فيما بعد فى "علم النفس المرضي العام"[٤]. وكتب برجسون تقرير عن مسابقة لوفيك لعام ١٩١٠ ويقترح "كتاب هانيكان" دراسات فى تاريخ العلوم. و"تاريخ الفلسفة" وهو تاريخ الاتجاه العقلى من ديكارت وليبنتز إلى اسبينوزا وكانط مروراً باسبينوزا

---

(١) الخطاب بتاريخ ١٩٣٦/٢/١٢، جان لابدى Jaulabdie، EP., III, P.616.

(٢) المسألة الدينية، بحث دولى عن العاطفة الدينية أجرته مجلة ميركير دى فرانس، ونشره شاربان Fr.Chanpin، باريس ١٩٠٨، Ep. II, p. 308.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٩/١/٣٠. Ep., pp. 313-4.

(٤) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ١٩١٢-١٩١٣، EP., II, pp.373-4.

فى مقابل اتجاه آخر معارض مثل هوبز[١].

ويدرس برجسون بعض الفضائل والموضوعات الأخلاقية مثل "الأدب" مؤسسا بذلك الظاهريات الوجدانية مثل ماكس شيلر، ومعتمدا على عبارة المسيح الشهير "أحب الجار كما تحب نفسك". ويعتمد على ديكارت ومالبرانش وبسكال وبعض الأدبيات اللاتينية القديمة ومصدرها عند أرسطو[٢]. ومنها التقرير عن كتاب "الأساس النفسى للأخلاق" لأندريه جوسان. وهو ما يتفق مع مدخل برجسون للعلوم الإنسانية وكما يبدو فى فصول الكتاب: التميز بين الخير والشر، الشعور بالالتزام ومفهوم الواجب، الشعور بالواجب ومفهومه، الجزاء الداخلى، تطور الأخلاق[٣].

وفى تقرير عن كتاب "التقدم والسعادة" لجان فينو، يصنفه برجسون ضمن علوم الحياة ومشاكلها كالبؤس والألم والسعادة والهناء، بعيداً عن المشاكل الميتافيزيقية الكبرى، واقتراباً من الحلول العملية. وقبل أن يجيب الفلاسفة عن موضوع الواجب فإنهم يجيبون أولاً عن موضوع السعادة. والجزء الأول خاص بالمذاهب الخلقية القديمة والحديثة التى تضع الواجب والسعادة على طرفى نقيض فى حين أن السعادة مطلب إنسانى حقيقى. أما النظريات فهى أبنية ذهنية خارج الوضع الإنسانى. وترتبط السعادة بالأخلاقية. فالطيبة أو الأريحية والحب

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٠/١٠/٢٢، Ibid., I, pp.350-3.

(٢) الأدب La Politesse. خطاب فى حفل توزيع جائزة فى مدرسة كليرمونفيران فى ٣٠/يوليو/١٨٨٥. EP., pp. 57-68.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٠/٥/١٤، Ibid., pp. 340-1

منبعان للسعادة للنفس وللآخرين. أما الغنى فإنها سعادة للفرد وحده. أما الحياة العائلية ففيها سعادة الفرد والآخرين. فلا توجد سعادة بديلة ودائمة بعيداً عن الآخرين. لا يختلط إذن مفهوم السعادة بالواجب ولا باللذة. فالغريزة تكفى. أما السعادة فإنها جماع العقل واللذة فى علم السعادة وهو موضوع الجزء الثانى. والسعادة أقرب إلى الإنسان مما يتصور. لذلك هناك أفكار خاطئة عن السعادة مثل الحسد وتصور الألم شراً ﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم﴾. فالألم يقوى على الطاقة ويبعث على التحدى. ليس الألم فى الفقر كما هو الحال عند الصوفية. فالفقر قيمة. إنما السعادة فى الحياة العاطفية: الصداقة، الحب، العائلة، الوطن، الإنسانية، وإرادة الحياة السعيدة. السعادة والأخلاقية شىء واحد وليسا نقيضين. وهو تفاؤل بإمكانية وصول الإنسان إلى غايته. وهو الكمال الخلقى بإدراك مباشر للواقع كما هو الحال فى حدس برجسون[١].

وقد اهتم برجسون بالتربية وإلقاء المحاضرات فى المدارس مثل الخطاب بمناسبة توزيع جائزة فى مدرسة فولتير[٢]. وأفضل جائزة ليست علاء الدين والمصباح السحرى بل التعليم وتنمية الذكاء. ودخل فى نقاش مع بينيه حول تعليم الفلسفة وأثر برجسون على تلاميذ المدارس الثانوية. ويبين برجسون صلة العلم بالميتافيزيقيا دون إدانة العلم بل تأسيس الميتافيزيقيا على العلم[٣].

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٤/٦/٢٧، EP., II, pp. 403-6. جان فينو Jean Finot.

(٢) خطاب توزيع جوائز مدرسة فولتير ١٩١٣-١٩١٤. PM., pp.195-181.

(٣) ملاحظات حول وضع الفلسفة وماهيتها فى التعليم الثانوى، فبراير ١٩٠٣. PM., p. 187-90 . الفردينية A.Binet.

وفى رده على بحث عن الشباب لاحظه برجسون تغيراً كبيراً وعميقاً فى الشباب اليوم. ويرجع ذلك إلى الثقة بالنفس، والجدية فى النظرة للحياة. والزواج المبكر يشجع على الإحساس بالمسئولية وطلب الكمال. ومن خلال الشباب يمكن رؤية نهضة فرنسية وعبقرية فرنسا وقدرتها على الاختراع كما حدث فى اختراع الطائرات، بالإضافة إلى النهضة الأخلاقية والوحدة الوطنية. الشباب اليوم يعمل بجدية وشجاعة ومسئولية. ويلاحظ نعمة التفاؤل عند برجسون، وإيمانه الأخلاقى وإحساسه الوطنى[1].

ويركز برجسون فى "الدراسات الكلاسيكية وإصلاح التعليم، وهو بحث ألقى فى أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية على التعليم الثانوى فى فرنسا وفائدة الدراسات اليونانية فيه. وقد كان برجسون مدرسها فى الثانوية مدة طويلة. وتفوق الطلبة فيها يسترعى الانتباه نظراً للارتباط بين الثقافة اليونانية اللاتينية وفن الكتابة والتأليف، وأيضاً بين معرفة اللاتينية والإحساس بالفرنسية. ويضاف الأدب إلى اللغة. إذ لا يمكن فهم الأدب الفرنسى دون معرفة الأدب اللاتينى. ويضاف الفكر إلى الأدب واللغة. فالفكر اليونانى يتضمن أفكار النظام والنسبة والمقياس والضبط والنعومة وروح الدقة. اليونان هم الأصل وبدونهم ينقص المحدثون عالم الغناء والخيال والضحك والشعر. وكما قال رينان أن قنينة العطر الفارغة مازالت تفوح. يخرج العالم القديم كله من أثينا وروما كما يبدأ العالم الحديث من أمريكا، وأمريكا من فرنسا، لافاييت نموذجاً. الروح القديم روح الدقة ضد التقريب والنسبية. الدراسات اليونانية واللاتينية هى التى جعلت فرنسا

---

(١) أجرى البحث جيل برتو. ونشر الخطاب فى مجلة الغالى ١٩١٢/٦/١٥. واقتبسه هنرى ماسيس فى كتابه "الشباب اليوم"، بلون ١٩١٣، EP, II, PP. 368-9.

على ما هى عليه الآن. وأضافت فرنسا الأشياء فى طريق الصنع على الأشياء الجاهزة. ومن ثم، يجب تعميم الدراسات الكلاسيكية فى المدارس والجامعات وكما دعى طه حسين فى بداية تأسيس الجامعات المصرية [١].

ب- **السياسة والقانون.** ولم يغفل برجسون الموضوعات السياسية. وقد خصص لها الفصل الرابع والأخير من "منبعا الأخلاق والدين" بعنوان الآلية والتصوف". فقد كتب ملاحظات حول الفلسفة الاجتماعية لكورنو ابتداء من التمييز بين العلة والسبب. العلة هى القوة المنتجة، والسبب مبدأ للتفسير. العلة شىء موضوعى. فى حين يتوقف السبب على وجهة النظر [٢].

وكتب تقريراً عن كتاب "ملاحظات حول نص المؤسسات" لكاسبودور لفكتور مورتيه. الذى كتب فى منتصف القرن السادس لبيان الصلة بين العلم المقدس والعلم الدنيوى فى المؤسسات. وهو أهم كتاب فى الفلسفة السياسية فى عصر الآباء بعد أوغسطين [٣].

وفى تقرير كتاب "تخطيط لما وراء بحر المانش" لجاك باردو يتحدث فيه عن انجلترا المعاصرة والاتجاهات الاشتراكية والجذرية فيها والأزمات الحربية والسياسية ورجالاتها وأحوالها كنوع من الذكريات التاريخية بل وعمرانها. والنتيجة مدى القرابة بين فرنسا وانجلترا. وينهى الكتاب بأعياد التتويج كنوع

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٢٢/١١/٤. EP., III, pp. 523-34.

(٢) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية، أغسطس١٩٠٣، EP., I, p. 199. العلة Cause، السبب Raison. كورنو Cournot.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الإنسانية والسياسية فى ١٩٠٤/٥/٢١. EP., I, p.223. مورتيه J. Mortet، جاك باردو J. Bardoux.

من الفولكلور[١].

وفى تقرير عن كتاب "الدول الاسكندنافية، الوطنية الاسكندنافية" لجاك دى كوسانج وهو اسم مستعار لمدام بيير كيريبل ترسم فيه صورة الوطنية فى البلاد الاسكندنافية خاصة الدانمرك. وبالإضافة إلى الوطنية العامة هناك خصائص لكل وطنية كالفردية والاستقلال والصداقة أو العداوة مع الدول المجاورة مثل صداقة السويد لألمانيا، وصداقه الدانمرك لإنجلترا وروسيا، وعداوة النرويج لألمانيا وصداقتها لإنجلترا. ويظهر دور أسقفيه أوبسالا فى روح الوطنية والاستقلال ومع ذلك، هناك خلافات حدود بينهما مثل الألزامس واللورين بين فرنسا وألمانيا. وقد اعتبرت السويد فنلندا عدوه لها لقرابتها من روسيا، واحتلتها. ومازالت بعض مدنها مثل توركو سويدية اللغة والثقافة. وكله جزء من تاريخ أوروبا[٢].

وقد يتداخل التاريخ مع السياسية فى التقرير الذى كتبه برجسون عن كتاب "فرنسا اليوم" لباريت فندل" وترجمة جرابه. والتاريخ هو التاريخ الاجتماعى. ويعتمد التقرير على النصوص والاقتباسات من الكتاب لإثبات الحياة اليومية للفرنسيين[٣].

ويحاول برجسون إصلاح النظام القضائى. ففى خطاب له حول "قاضى

---

(١) السابق جلسة ١٩١٤/٣/٢٨. Ibid., II, pp.401-2.

(٢) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة دى كوسانج J. De Coussange.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسة، جلسة ١٩٩١/٦/١١. EP., II, pp. 346-8. فندل B. Wendel.

الجنايات" ينتقد عدم صبر القضاء فى الحكم على الجرائم العاطفية. فكل الجرائم خارج السرقة جرائم عاطفية. وهو تعريف فضفاض للغاية. القضاة فى الأرياف أكثر قسوة فى حين أن قضاة العواصم مثل باريسأكثر تسامحاً. وسبب ذلك تصورهم للعدالة الإنسانية باعتبارها حامية للمجتمع. لا يتحقق القاضى بما فيه الكفاية. لا يداول بل يسمع. ويعتقد أنه قادر قدرة مطلقة. يخضع لعمل الخيال المسرحى، وكأن المجرم بطل رواية. أجداد المجرم كانوا طيبين من العمال أو الموظفين. وكلها أحكام وجدانية قد تتفق مع العاطفة ولكنها تناقض العدالة. القاعدة القضائية: لا حكم إلا بعد المداولة. وقاضى الجنايات يحكم بالعواطف. والسؤال هو كيف يصدر القاضى حكمه وما هى حيثياته؟ المداولات الحقة هى المداولات الموجهة من أجل الوصول إلى هدف وحكم لا يقوم على العواطف. والقاضى تأخذه الشفقة خوفاً من القسوة، أصبح الحكم مرتبطاً بشخص القاضى ومزاجه أكثر من قيامه على الموضوع(١).

وفى تقرير عن كتاب"الميثاقية" لإدوارد دوليان يبين برجسون أهمية المواثيق كموضوع اجتماعى وسياسى فى انجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر. وهى حركة "ميثاق الشعب" قبل ميثاق الأمم". وأهم شىء فى الكتاب هو المنهج قبل الاقتصاد التاريخى. الميثاق هو حق العمال فيما ينتجونه فى الثورة الصناعية. يقوم على مفاهيم الطبيعة والحق والفرد والتى منها ينتج تأميم الراضى الزراعية وحقوق العمال(٢).

---

(١) خطاب حول قاضى محكمة الجنايات، الزمان ١٩١٣/٢/١٩. EP,. Pp, 388.

(٢) تقرير حول كتاب "إدوار دوليان". الميثاقية Le Chartisme، جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٤/٧/١١، Ibid., pp. 407-9، إدوارد دوليان E. Dolleans

**جـ- الفن والدين.** ويبدو اهتمام برجسون بعلم الجمال والفن في عدة تقارير للأكاديمية الفرنسية مثل التقرير عن كتاب "معنى الفن" لجولتييه، مقدمة أميل بوترو[1]. كما يحدد دور الفن وقيمته ضد علم الجمال العقلى، دفاعاً عن علم الجمال الوجدانى. مهمة الفن إبداع الجميل. والجمال فى النفس قبل أن يكون فى الخارج. مهمته رفع مستوى الروح للفرد والمجتمع.

ويراجع برجسون كتاب، سينانكورا، شاعراً أو مفكراً دينيا وإعلامياً، حياته وعمله وأثره "لميرلان"[2]. فقد بدأ الشاعر أبيقوريا عقلانيا ثم تحول إلى المسيحية الفلسفية. وتأثر بفلاسفة القرن الثامن عشر وببعض رومانسيى التاسع عشر مثل شاتوبريان. وأثّر بدوره ألفرد دى فينى وجورج صاند وأميل وغيرهم. وكتب تقريراً على كتاب "لافونيتن" لنيراك[3]. وهو عالم نفس يحلل قصص لافونتين تحليلاً نفسياً. وكتب تقريراً آخر عن كتاب "موسيقى اللاشعور" لبيزياس. ويبدأ الكتاب بفلسفة الموسيقى عند شوبنهور وبتحليل اللاشعور. والموسيقى هى حياة اللاشعور[4].

وكتب تقريراً آخر عن كتاب "الموسيقى الشاعر فاجنر دراسة فى علم نفس الموسيقى لليونيل دورياك. فموسيقى فاجنر تدخل الروح وتتحول إلى حالات

---

(١) جلسات وأعمال الأكاديمية الأخلاقية والسياسية ، جلسة ١٩٠٦/١١/٢٤.- EP., pp. 257-8. أميل بوترو E. Boutroux.

(٢) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٨/١/١٨، EP, pp. 286-7 سيناكور Sénancour.

(٣) السابق، جلسة ١٩٠٨/٥/٢٣، Ibid., pp. 297. نيراك Nayrac.

(٤) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. جلسة ١٩٠٨/٢/١. EP., II, pp288-9.

نفسية ولفاجنر دراسات نظرية مثل "الفن والثورة"، "العمل الفنى فى المستقبل"، الأوبرا والدراما" حيث يعرف الدراما الموسيقية بأنها زواج الشعر بالموسيقى من أجل خلق شعر الأصوات. وقد حقق فاجنر ذلك فى مجموعته الرباعية: بارسيفال تريستان وإيزولدا، المعلمون المغنون. والموسيقى الشعرية أو الشعر الموسيقى تراجيدياً مثل خاتم نبلونجن. فالعمل الدرامى لفاجنر متصل تتخلله فزات منقطعة(١).

وأعطى مقابلة لآميل عن الفن وصلته بالفلسفة. ويعترف برجسون بأن فلسفته أقرب إلى الفن منها إلى العلم بعد اعتبار الفلسفة هى العلم مدة طويلة، أم العلوم. والعلم لا يعطى إلا صورة ناقصة للواقع عن طريق الرموز المصطنعة المتجزئة. فى حين يشارك العلم الفلسفة فى الحدس. بل إن الفلسفة هى النوع والفنون هى الأجناس. وقد تضمن كتاب "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" نظرية فى تصنيف الفنون متأثراً بأعمال ميترلنك المسرحية، وبموسيقى ديبوسى فى الديمومة وبأفكار سوريل، وبلزاك، لما فى أعمالهما من حياة وكشف للواقع. بل إن فلسفة اسبينوزا أشبه بالعمل الفنى الذى كان يمكن أن يتحول إلى دراما. بل إن المحاضرة عمل فنى تقوم أولاً على المتلقى أى انتباه المستمعين. وتعاملهم مع المحاضرة عمل درامى له مقدمة وذروة وخاتمة(٢).

ونظرا لانتشار علوم النقد التاريخى للكتب المقدس فقد كتب برجسون تقريراً عن "الكتاب المقدس لمدينة آميان" لراسكين، ترجمة ومقدمة مارسل بروست. وهو كتاب فى علم الجمال وليس فى نقد النصوص. ويعنى الكتاب

---

(١) السابق جلسة ١٩١٠/٤/١٦. Ibid., pp. 337-9. بيزاياس Bazaillas.

(٢) وهو ما تعلمه جيتون من برجسون وما تعلمته من جيتون.

المقدس هنا كل ما يتعلق بالجمال الدينى مثل كاتدرائية أميان. ويعتمد الكتاب على علم النفس، ويكشف بروست عن الأحكام المتناقضة على راسكين بأنه واقعى أو جمالى أو عقلى. يبحث عن دور الخيال فى الفن. ويعطى العلم دوراً كبيراً. ويبين برجسون الروح الدينية وراء جماليات راسكين[1].

ويعبر برجسون عن تقديره لستة أبحاث مقدمة لمسابقة فى موضوع العلم والإيمان. ومع ذلك ينقد بعضها. فالبحث الأول معقول ولكنه سطحى. يميز بين الإيمان والمعتقدات. الأول جوهر ثابت والثانى عرضى متغير. ولا يوجد تعارض بين اللامرئى وهو الدين والمرئى وهو العلم، وهى ثنائية برجسون. والثانى لا يبين أوجه التعارض ولا طرق الحل بين الإيمان والعلم. والثالث لا يقصد العلوم الطبيعية المنطقية. ويقصد بالإيمان التنظيمات الكنسية خاصة فى أقاليم سويسرا. وهو خارج الموضوع. يعتمد على النصوص. ويعرض النظريات دون ما حاجة إلى ذلك، ودون حجج أو تعبير واضح. وهو ما يناقض منهج برجسون الحدسى. والرابع يبين أن العلم ليس اعتقاداً بل متطوراً دائماً. ولا يعطى تركيباً نهائياً. والدين ليس اعتقاداً أو معتقدات بل دافعاً على الأخلاق. ومن ثم لا يتناقض العلم والدين بهذا المعنى. إلا أن البحث مختصر. وهو ما يدل على نهج برجسون البرهانى[2].

وفى تقرير عن كتاب "فلسفة جديدة فى التاريخ الفرنسى الحديث" لرينيه جيون، وهى دراسة لأعمال أرنست سيير عن فلسفة التاريخ فى فرنسا فى

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الإنسانية والسياسية فى ١٩٠٤/٥/٢٨، EP.,p.224. راسكين Ruskin .

(٢) مجلة كورنتيوم، العدد يناير – فبراير ١٩١٢، ص ١٨١-١٩٠. EP., pp. 361-2.

الماضى والحاضر واتجاهها نحو المستقبل. وتدور حول ثلاثة موضوعات: الاستعمار، والتصوف، والعقل. الاستعمار هو الرغبة فى الهيمنة، ووعى بالحياة. وهو مباطن للدافع الحيوى، روح الأفراد والشعوب فى تطور مستمر نحو ما يفوق الطبيعة. ويتولد التصوف عن هذا الدافع، باعتباره إشباعا لطموحات الأفراد والمجتمعات. الاستعمار والتصوف يتعاونان معا، ويكمل بعضهما بعضاً. كلاهما نتاج الدافع الحيوى. ثم يخضع كلاهما للنقل أى للتجربة الاجتماعية فى التراث. ويتحول الكل إلى حضارة. ونماذج التاريخ فى ذلك روسو، أبو العصور الحديثة، وليس مدام جيبون أو فنلون. يمثلان مجرد تصوف باطنى. التصوف على أنواع: تصوف إمبريالى، مضمون ديمقراطى، تصوف اجتماعى، تصوف جمالى أو رومانسى، تصوف عرقى. وهناك تصوف التوراة أو التصوف الثورى. يعتمد على العقل والواقع. وعليهما يتأسس الوحى.

وهناك منهجان لدراسة التصوف منهج ثابت مثله منهج تين. يقوم على التحليلي العقلى ووصف البيئة الاجتماعية التى ينشأ فيها التصوف، ومنهج حركى مثل منهج روسو الذى يدرس التصوف كحركة أحوال ومقامات كاللحن فى النفس[1].

وفى خطاب إلى بليز روميه يدافع برجسون عن نظريته فى العدل الإلهى القائمة على الجمع بين الدين والفلسفة. ويعترف بأنها غير كاملة لأنه ليس لاهوتياً يؤسس عقيدة ويقيم مذهباً. وهناك مسافة بين اللاهوت والفلسفة. الأول يقوم على العقل والثانى على الحدس. ولا حل لهذا التعارض إلا بالتصوف الذى

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. جلسة ١٩٢١/٧/٩، EP. III, pp. 4-492. رينية جويون Rene Gillouin. أرنست سيير Ernest Seillière.

يشق طريقاً ثالثاً بين الاثنين، العقل والحدس، اللاهوت والفلسفة[1].

وفى خطاب إلى رئيس الاتحاد من أجل الحقيقة بعد مقابلة صحيفة حول "منبعاً الإطلاق والدين" يعترف بأهمية ملاحظات لوسين إلا أن برجسون يتبنى منهجاً يستبعد كل بناء نظرى. ولا يتجاوز بحثه حدود التجربة[2].

وفى خطاب إلى الأب جورسى الذى حاول أن يقرّب بين فلسفة برجسون والواقعية الجديدة عند توما الأكوينى يصرخ برجسون بأنه لا يعرف فلسفة العصر الوسيط ولا فلسفة قوما الأكوينى ولا يعنى كتاب برجسون "الفكر والمحرك" العقل أو الفكر بالمعنى الكانطى فى "نقد العقل الخالص[3]".

وفى خطاب آخر إلى الأب سيرتيلانج يبين برجسون أهمية المقارنة بين فلسفته وفلسفة توما الأكوينى، ولكن الخطأ فى المصطلحات الفلسفية وعلى من لا يفهم التومادية، إن الحرية تعبير عن الشعور ولكنه على مستوى العقل. ويعتبر أن الاعتراضات على فلسفته مكررة نبهه عليها رافيسون. العرض للتومادية جيد فيما يتعلق بالتمييز بين العلة الفاعلة والعلة الكافية ولكنه قراءة للحاضر فى الماضى. ومع ذلك يرفض برجسون اتهامه بأنه وقع فى مشاكل عدة وقد أمضى خمسين عاماً فى البحث العلمى والتحليل الفلسفى[4].

---

(١) الخطاب بتاريخ ١٩٣٣/٣/٢٤. رينيه لوسين René Le Senné. بليزروميه B. Roméer.

(٢) الخطاب بتاريخ إبريل مايو ١٩٣٣. Ibid., pp. 597.

(٣) الخطاب بتاريخ ١٩٣٥/٦/١٦. ibid., pp. 598-9. جورسى Gorce.

(٤) الخطاب بتاريخ ١٩٣٧/١/١٩. Ibid., p.643-4 A.D. Sertillanges: Le Libre arbitre chez Sanit Thomas et Chez M. Bergson.

# الفصل الخامس
# مسار الحضارة الأوربية

## الفصل الخامس

## مسار الحضارة الأوربية.

### ١- بداية الوعى الأوربى[١].

أ- **العقلانية**. ويتضح من كشاف أسماء الأعلام الأولوية المطلقة لديكارت مؤسس العصور الحديثة لأن برجسون ينهيها. والنهاية تحيل إلى البداية، والبداية تحيل إلى النهاية. الحقيقة قراءة الحاضر فى الماضى. والماضى يتراءى فى الحاضر. ومع ديكارت يظهر التيار العقلانى عند كانط، وليبنتز، واسبينوزا، وأفلاطون ومالبرانش، وبسكال، وكوزان، وايفيلين، وبرنشفيج وغيرهم ويصرف النظر عن الترتيب الزمانى.

بدأ برجسون حياته وهو مازال طالبا مهتما بالرياضيات وكان عمره تسعة عشر عاما. ودخل فيها المسابقات كى يبتعد عنها لصوريتها كما فعل هوسرل فى المرحلة الثانية من حياته بعد أن حاول أن يبحث عن أسسها النفسية فى المرحلة الأولى فى "فلسفة الحساب"[٢].

وكتب رسالة إلى ليون برنشفيج حول الحرية الأخلاقية من أجل عدم الخلط بين الحرية الأخلاقية والحتمية الفيزيقية[٣].

---

(١) ديكارت (٤٤)، كانط (٢٨)، ليبنتز (١٤). اسبينوزا (١٣)، أفلاطون، مالبرانش (١٢)، بسكال (١١) إيفيلين (٩)، كوزان، لالاند (٨)، إميل بوريل (٦)، كزافييه ليون (٧)، برنشفيج (٤).

(٢) Question Proposée au concours général de 1877 pour la classe de mathématique élémentaire EP. I, pp. 3-9.

(٣) ملاحظات حول مفهوم الحرية الأخلاقية، خطاب إلى برنشفيج ١٩٠٣/٢/٢٦. EP., I, pp. 194-6.

ويناقش برجسون المواد الفلسفية التى وضعها لالاند فى "القاموس الفلسفى" خاصة مفهومى "مباشر" و"لا يمكن معرفته"، وفى مقال آخر، مفهوم الحدس باعتباره عملية أصيلة للروح لا يمكن رده إلى الأفكار المتناثرة[١].

كما يُلخص برجسون محاضراته حول الكتاب التاسع من التاسوع السادس لتاسوعات أفلوطين وجول "تاريخ فكرة الزمان"[٢]. ويكتب كذلك مادة حول "الحرية وهى الضرورة الداخلية"[٣].

ويكتب تقريرا عن كتاب "سعادة العقل" لأوسيب لسوريه حيث يعرض المؤلف مفهومين للسعادة: واقعى يقوم على الملكية، ومثالى يقوم على الرغبة، ومصدرها الحب والفن والعلم والحرية.

ويكتب تقريرا عن كتاب "التركيب العقلى" لفلهوزر الذى يميز فيه بين الحياة النفسية والحياة الروحية. تخضع الأولى للقوانين النفسية، بينما تند الثانية عن الحتمية، معتمدا على أعمال السابقة "المادة والذاكرة و"التطور الخالق"[٤].

وفى تقرير عن كتاب "نشأة العقل" لجورج بون يثنى برجسون على الكتاب لأنه قام على التمييز بين الوظائف العليا الدنيا للعضو الحى المرتبطة بالدماغ والوظائف العليا[٥].

---

(١) مناقشة خاصة بالقاموس الفلسفى. اقتراحات خاصة باستعمال بعض الألفاظ الفلسفية. Ibid., II, pp. 300-3. PM. J, pp. 168-72, 74، نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية، جلسة ١٩٠٩/٧/١ EP. P. 322.

(٢) Ibid., II, pp. 349. Ibid., pp. 173.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الإنسانية والسياسية ١٩٠٥/٤/١. Ossipe-Louvie: Le bonheur de l'intelligence EP. II, p. 237.

(٤) السابق، جلسة ١٩٠٨/٦/٢. Ibid., pp. 298-9.

(٥) السابق، جلسة١٩٠٩/٥/١. Ibid., pp. 317-8.

وفى رسالة إلى مؤتمر ديكارت وهو فى نهاية العمر ومهموم بمقدمات الحرب العالمية الثانية كما كان فى قلب الحرب العالمية الأولى، وبمناسبة ديكارت، يتعرض للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية فديكارت هو عبقرى التأمل، وروح مساوقة للعالم. "مقال فى المنهج" بداية العصور الحديثة، وهو نقل للرياضيات الشاملة على مستوى الفكر. خلق اتجاها روحانيا بتمييزه بين النفس والبدن. ووضع أسس المثالية الحديثة. كما خلق الميتافيزيقا الحديثة بمنهج التأمل الباطنى. الفضيلة الأولى لديه هو الكرم أو الأريحية. وإذا كانت فيزيقا أرسطو لفنان فإن فيزيقا ديكارت لمهندس. أحال البيولوجيا إلى فيزيقا. وقد انتهت الفلسفة فى بدايتها إلى نوع من البرجماتية الميتافيزيقية. وينهى برجسون الرسالة بمجاملاته العادية من خلال عصبة الأمم والتحية إلى ألمانيا والمجر وسويسرا وهولندا وإنجلترا. وباجتماع ديكارت وبيكون فى بداية العصور الحديثة يلخص برجسون الديكارتية بأنها العمل كرجل فكر، والتفكير كرجل عمل[1].

وفى رسالة إلى جاك شيفالييه يبين برجسون أن الفكرة الخاطئة تترك مكانها طبيعيا للفكرة الصحيحة طبقا للقوة الباطنية فى الحقيقة "إنما بقاء الباطل فى غيبة الحق عنه". وهذا هو السبب فى أن حل كتاب "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" محل كانط، وبيان إمكانية الحدس الذى يفوق الحس إذا ما فهم العقل بمعنى أوسع كما أعطاه له كانط. الحدس يفوق العقل، عمل للروح[2].

---

(١) الرسالة بتاريخ ١٩٣٧/٩/١١. EP. III, pp.445-9.

(٢) الخطاب بتاريخ ١٩٢٠/٤/٢٥. ومذكور فى كتاب "برجسون" لجاك شيفالييه، بلون ١٩٢٦. EP. III, p. 489.

وكتب برجسون تقريرا عن مسابقة لجائزة تقدم بها إيفيلين بكتابه "العقل الخالص والنقائض"، وبيلو بكتابه "دراسات فى الأخلاق الوضعية". وبالإضافة إلى الهدف من العرض فإن إثبات نقائض العقل فى الجدل الترنسندنتالى يكشف عن عجزه عن الإدراك، مما يفسح المجال للحدس. أما التقرير الثانى عن "دراسات فى الأخلاق الوضعية" لبيلو فإنه يبين حدود الخطأ الثانى فى الوعى الغربى منذ ثنائية ديكارت وهو التجريبية عند جون استيوارت مل أو الوضعية عند كونت وليفى بريل ودوركايم(١).

وفى تلخيص محاضرات برجسون حول "الشخصية" و"رسالة فى إصلاح الذهن" لاسبينوزا. ما أبعد الموضوعين عن بعضهما البعض فى الظاهر(٢). الأول أقرب إلى الفلسفة المعاصرة، الثانى فى لب الفلسفة الحديثة. أما إذا اعتبر مفهوم "الشخصية" مثل مفهوم "الجوهر" مفهوما ميتافيزيقا، هنا يظهر التشابه بين الموضوعين بالرغم من الطابع النفسى للأول، والعقلى للثانى. الشخصية حالات شعورية وليست جوهرا ثابتا. توحد بين حالات الشعور المتعددة. كما حلل أمراض الشخصية وقضايا الشعور واللاشعور. أما "رسالة فى إصلاح الذهن" فإنها تتضمن أنواع المعرفة كما هى معروضة فى كتاب "الأخلاق". ومنها المعرفة الحدسية، والفكرة الحقيقية. وهو ليس فقط ديكارتى بل له فلسفته الخاصة التى لا يمكن ردها لديكارت.

والعجيب أن يجمع برجسون فى محاضراته بين نقيضين كما يبدو فى ملخص محاضرته حول "فكرة التطور" و"المبادئ العامة لفلسفة اسبينوزا".

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٩٧/١٠/١١. EP., pp. 268-76. ايفيلين Evellin، بيلو G. Belot.

(٢) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ١٩١٠-١٩١١ ص ١١٤. EP. II, pp. 355-7.

موضوع حقيقى وهو التطور، والثانى زائف وهو جوهر اسبينوزا. فطبقا لعبارة برجسون الشهيرة: "لكل إنسان فلسفتان، فلسفته الخاصة وفلسفة اسبينوزا". الأولى صحيحة والثانية وهم. يمكن التحقق من موضوع التطور بالتجربة، فى حين أن المبادئ العامة لفلسفة اسبينوزا فى "الأخلاق" و"الرسالة القصيرة" يمكن استنباطها من العقل البسيط[1].

وفى رسالة إلى ليون برنشفيج بمناسبة الاحتفال بمرور مائتى عام على وفاة اسبينوزا، يصرح برجسون بأن اسبينوزا هو نموذج الفلسفة الخالدة طبقا لعبارته الشهيرة. فالمعرفة الداخلية للحقيقة تتحدد مع الفعل الخالد الذى يضع هذه الحقيقة ذاتها. وتجعلنا نشعر بهذا الخلود فى كل مرة تقرأ كتاب "الأخلاق"[2].

وفى مختصر لمحاضراته عن "تكوين الأفكار العامة وقيمتها" و"مبادئ المعرفة عند بركلى. ويحلل برجسون نشأة الأفكار من وجهة النظر النفسية ثم كيفية تعميمها[3]. كما عرض كتاب "رسالة فى مبادئ المعرفة الإنسانية" لبركلى لتوضيح معنى المثالية.

ويرد على مقال بوريل "تطور العقل الهندسى" الذى يسئ فهم بعض الآراء الواردة فى "التطور الخالق" ويتهم برجسون بأنه تصور العقل الهندسى جامدا لا يتطور كما كان الحال عند اليونان. ويتبنى فكرة وحدة الفكرة الرياضى دون أى رؤية للخيال. فى حين يرى برجسون مع آخرين أن الرياضى الحقيقى هو

---

(١) المصدر السابق ١٩١١-١٩١٢ (ص٣٨).

(٢) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية يونيو ١٩٢٧، جلسة ١٩٢٧/٢/٢٦. EP., III, pp. 587-8.

(٣) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس، ١٩٠٧-١٩٠٨ ص ٨٩. EP., II, p. 279.

الشاعر أى ضرورة الخيال. ومن ثم ينطبق مفهوم التطور فى "التطور الخالق" أيضا على الرياضيات[١].

وقد لخص برجسون محاضراته حول "طبيعة الروح وصلة الروح بعمل المخ وعن محاورة سيريس" لبركلى. وهما تيارات متعارضان، السيكوفيزيقا من ناحية والمثالية الأفلاطونية الجديدة من ناحية أخرى[٢].

ويدافع برجسون ضد اتهامه بإنكار دور العقل فى فلسفته فى خطاب إلى أجنور بيتى فى كتابه "برجسون والعقلانية". فالعقل ما زال له دور فى الميتافيزيقا والفلسفة. وفى ميدان المادة يستطيع العقل الوصول إلى المعرفة المطلقة. كما يستطيع الوصول إلى الحقيقة إذا ما تحول الروحى إلى مكانى. وقد أصابت الدراسة فى تحليل وتعميق أفكار برجسون عن عادة العقل فى التفكير فى الوجود من خلال العدم[٣].

ب- **التجريبية**. ثم يظهر التيار التجريبى عند القدماء، لوكريس، وأرسطو، وأبيقور، وعند المحدثين، أوجست كومت، وكوندياك، وسبنسر، وتين، وجون استيورات مل[٤].

وأهمية لوكريس هو تعليم الطلاب شعر الطبيعة والانتباه إلى الواقع. لذلك اختار برجسون بعض المقتطفات منه لتعليم الطلاب مع شرحها لمساعدتهم على

---

(١) مجلة "الميتافيزيقا والأخلاق" يناير ١٩٠٨. EP., II, pp. 280-5. بوريل E. Borel.

(٢) الكتاب السنوى لكوليج دى فرانس ١٩٠٨-١٩٠٩ ص٧٦. EP., II, p. 309.

(٣) الخطاب بتاريخ ١٩١٧/١/٢٧. Petit: Bergson et le Rationalisme EP. III, pp. 459-60 . أجنور بيتى Agenor Petit.

(٤) لوكريس (٣٤)، أرسطو (٢١)، بيلو Belot (٢٠)، أبيقور (١٠)، أوجست كومت (١٠)، كوندياك، فرجيل (٩)، سبنسر (٨)، تين (٦)، جون استيوارت مل، بولدوين، لوك فلسهاوفرز Welshauvers (٥)، ليفى بريل (٤).

اكتشاف الواقع، وباللغة الأصلية "اللاتينية"[١]. وبالرغم من أن لوكريس ضد الدين وبرجسون مع الدين إلا أن نقطة البداية عند كليهما واحدة وهى الطبيعة والشعر. فكلاهما فنان. بيّن برجسون أصالة لوكريس وشاعريته ومعه ديموقريطس وأبيقور. وينقد فيزيقا لوكريس وكل الطبيعيات القديمة التى تقوم على الذرة. ولا يختلف عنه فرجيل فى شعر الرعاة. كما ينقد لغته القديمة من أجل تعليم الطلاب حسن استخدام اللغة.

وكذلك يلخص برجسون محاضراته فى الكوليج دى فرانس حول الكتاب الثانى من كتاب الطبيعة لأرسطو وحول مخطط لتاريخ فكرة الزمان فى علاقته بالمذاهب الفلسفية[٢]. كما لخص محاضراته على الكتاب الثانى عشر من ميتافيزيقا أرسطو و"تطور نظريات الذاكرة"[٣].

ويدرس فى علم النفس ظاهرة اللاشعور والتنويم المغناطيسى[٤]. وهى الظواهر التى درسها برجسون فيما بعد مثل ظاهرة التراسل الروحى عن بعد بالرغم من أنه لا يسلم بوجود اللاشعور كما هو الحال عند فرويد والذى لا يذكره إلا نادرا. وقد اعتمد على التجربة الفعلية التى قام بها روبينيه[٥].

---

(١) مقتطفات من لوكريس EP. I, pp. 17-56.

(٢) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ١٩٠٢-١٩٠٣. PM. p. 191.

(٣) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ١٩٠٣-١٩٠٤. Ibid., p. 222.

(٤) De la simulation inconsciente dans l'etat d'hypnofisme, EP. I, pp. 69-75. روبينه Robinet.

(٥) .

وفى بحث "التوازى السيكوفيزيقى والميتافيزيقا الوضعية" يبدأ برجسون اللجوء إلى التجربة، من أجل البحث عن دلالة الحياة ومن أجل إقامة ميتافيزيقا وضعية[1].

وفى تقرير عن كتاب "مفهوم الضرورى عند أرسطو والسابقين عليه" لجاك شيفالييه يبين برجسون أن الدراسة لميتافيزيقا أرسطو أرادت الجمع بين الفردى فى الطبيعة والضرورى فى المنطق، مع مقارنه مع سابقيه خاصة أفلاطون. فالواقع عند اليونان عقلى. ومهمة العلم تحويل الواقع إلى عقل أو إلى علم. موضوع العلم العام، والواقع فردى. فى حين أرادت الفلسفة الحديثة أن تبين الفرق بين الواقع والفكر. لذلك زواج المثل الأفلاطونى بين الجنس المنطقى والعلة الفيزيقية. ويبين الكتاب الاتجاهين فى الفلسفة اليونانية، المنطقى والفيزيقى. وهو ما يعبر عنه اسبينوزا فى مذهبه فى إطار الضرورة. كما جمع أرسطو بين النظرة الآلية والنظرة الغائية. لذلك كان الله عند أرسطو ليس خالقا للعالم[2].

وفى تقرير عن كتاب "الداروينية فى العلوم الأخلاقية" لبولدوين المترجم إلى الفرنسية، وهو تطوير لبحث سابق عن أثر دارون فى العلوم النفسية والأخلاقية بمناسبة المائوية الأولى لميلاد دارون والخمسية لظهور "أصل الأنواع" يكتفى برجسون بعرض الكتاب فصلا فصلا مقارنا بينه وبين نظريات

---

(١) التوازى السيكوفيزيقى والميتافيزيقا الوضعية، كتب فى ٢ مايو ١٩٠١. PM., pp. 139-167.

(٢) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٦/٧/١. EP. III, pp. 451-2.

فيسمان. ويكفى برجسون أن ينتهى المؤلف إلى أن التطور ليس آليا بالضرورة بين العلل والمعلولات لأن الطبيعة تتضمن مظاهر الجدة فيها[١].

فإذا كان كانط وسبنسر قد أيقظا برجسون من سباته، الأول ضد العقل، والثانى ضد التطور، فإن إعجاب برجسون بالتيار المادى ظل قائما ممثلا فى المدرسة التطورية عند سبنسر، والاجتماعية عند ليفى بريل. فكتب تقريرا عن محاضراته حول "نظريات الإرادة" وحول بعض فصول "مبادئ علم النفس". حاول تحليل الإرادة وبوجه خاص الجهد بأبعاده الثلاثة العضلى، والشعورى (الانتباه)، والإرادى (الاختيار الحر). ويربطهما معا الإحساس بالجهد الذى يربط بين الإحساسات والصور والأفكار والحالات النفسية المتنوعة[٢].

وفى تقرير عن "التعددية، دراسة فى الانقطاع واللاتجانس فى الظواهر" لبوكس- بوريل يقرأ فيه برجسون موضوعه عن التواصل والانقطاع فى مسار التطور. التواصل عند سبنسر وداروين، والانقطاع بسبب الطفرة عند برجسون[٣].

ودفاعا عن "التطور الخالق" ضد متهميه من المحافظين واللاهوتيين والتطوريين بأنه إنكار للخلق وأن الخالق هو التطور وليس الله كتب رسالة إلى مدير مجلة الشهر" ردا على مقال لودانتك عن "التطور الخالق الذى لم يحالفه التوفيق فى الحكم على فلسفة برجسون[٤]. ويعتمد الكاتب على مقال سابق وهو

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ١٩١٣. جلسة ١٩١٣/٦/٤. EP., pp. 375-7 بولدوين Baldwin، فيسمان Weissmann.

(٢) الكتاب السنوى للكوليج دى فرانس ١٩٠٦-١٩٠٧.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٩/٦/٢١. EP., II, pp. 319-21.

(٤) مجلة الشهر ١٩٠٧/٩/١٠. لودانتيك Le Dantec.

"مقدمة فى الميتافيزيقا" يحاول أن يميز بين النسبى والمطلق. المتحرك كشئ نسبى، والحركة كحالة نفسية مطلقة أى دائمة. وهى نفس القسمة الديكارتية بين المتحرك وفكرة الحركة. وهو ما عرضه برجسون من قبل فى "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" فى مفهوم الديمومة الفعلية[1].

وفى رسالة إلى تونكيديك يكشف برجسون أنه فى "التطور الخالق" يتكلم عن الله عندما يتكلم عن الحياة، والطاقة الروحية، والدافع الحيوى، والخلق ولكن بطريقة مخالفة لطريقة اسبينوزا[2].

وفى رسالة أخرى له يعطى الحق فى نشر ما يشاء فيها والعبارات المقتبسة من "التطور الخالق" التى تتعلق بطبيعة الله. ولا يضيف برجسون شيئا كفيلسوف لأن المنهج الفلسفى يقوم على التجربة الداخلية أو الخارجية. ولا يسمح بإصدار أحكام على ما يتجاوزها. ولا تدخل العقائد الشخصية كجزء من التحليل الموضوعى. "رسالة فى المعطيات البديهية "عن الحرية" و"المادة والذاكرة" عن واقعية الروح" و"التطور الخالق" عن الخلق كواقعة. ومن ثم يمكن استنتاج وجود إله خالق حر مصدر المادة والحياة. يستمر خلقه فى الحياة من خلال تطور الأنواع وتكوين الشخصية الإنسانية. وبالتالى يمكن تفنيد الواحدية ووحدة الوجود. أما المشاكل الخلقية فهى موضوع آخر فى حاجة إلى برهان فلسفى[3].

---

(١) وقد نشر فى مجلة الميتافيزيقا والأخلاق، يناير ١٩٠٣. EP., pp. 264-7. تونكيديك Tonquedec.

(٢) جزء من خطاب من مقال تونكيديك: "هل برجسون وإحدى دراسات دينية وتاريخية وأدبية لآباء جماعة يسوع". يناير مارس ١٩١٢ ص ٥١٤-٥١٦ .

(٣) EP. II, pp. 365-6.

وفى خطاب إلى فلوريس ديلاتر يعبر برجسون عن رأيه فى كتاب "التطور" لبتلر مبينا أوجه التشابه بينهما دون التأثر به. فقد عرفه برجسون بعد ١٩١٤ فى حين صدر كتاباه "التطور الخالق" ١٩٠٧ و"المادة والذاكرة" ١٨٩٦. وأثناء مكوث برجسون فى إنجلترا أحضر معه بعض مؤلفات بتلر مثل "الحياة والعادة"، "التطور، القديم والجديد"، الله المعروف والله غير المعروف". وقد كتب بروح ساخرة ناقدة للداروينية. والواقع لا يوجد تشابه حقيقى بين أفكار برجسون وأفكار بتلر حول التطور والحياة والذاكرة والعادة. وأحيانا يوجد بعض التعارض. ويتفق برجسون معه فى عدم كفاية الداروينية وهو ما يعترف به كثير من علماء البيولوجيا. لقد أخطأ دارون فى اعتبار المنافسة الحيه والاختيار الطبيعى كمبادئ تكفى لبقاء الأحياء. والمشكلة الرئيسية هى تحديد أسباب التنوع. يقترح بتلر مبدأ الغائية فحسب. وهو عود إلى نظرية التطور عند لامارك السابقة على نظرية دارون. وتقول بأن الجهود الفردية تنتهى إلى عادات تتحول إلى وراثة. فى حين أن "التطور الخالق" عند برجسون ينفى أن تصبح العادات المكتسبة وراثية. وهى أنها ليست نتيجة المجهود الفردى بل تنبثق فجأة عند أفراد النوع بالإضافة إلى أن غائية التطور تتضمن جدة مستمرة[١]. تقوم نظرية بتلر على رد الحياة إلى نوع من المقارنة بين التطور العضوى و"ذاكرة لاشعورية" يحتفظ بها العضو الحى أثناء تطور الأجداد. وهذه مجرد استعارة، وصورة ذهنية لحسن التعبير. هذه الواقعة هى جزء من الواقع. والأهم هو عدم القدرة على التنبؤ، والخلق المستمر. وهو تطور الحياة الذى يسميه برجسون

---

(١) الخطاب بتاريخ ١٩٣٥/١٢/٢. EP. III, pp. 600-5. فلوريس دى لاتر Floris Delattre.

الانتباه أو الوعى فى "التطور الخالق". الجانب السلبى أى نقد الداروينية فى نظرية بتلر أفضل من الجانب الإيجابى، إعطاء البديل. ويشبه الجانب السلبى نظيره عند برجسون وهو وقوع دارون فى نوع من الآلية فى تفسير الحياة على نقيض المدرسة الحيوية فى الفلسفة.

والمسئول عن ذلك هو ندرة المصطلحات الفلسفية أو سوء استعمال الموجود منها والتى عانى منها برجسون أيضا أثناء كتابة "التطور الخالق" و"منبعا الأخلاق والدين" مما يضطره أحيانا استعمال الاستعارة والمجاز والصور الفنية والمقارنات. فلا يوجد تصور يعبر عن فكرة مما يضطر المؤلف إلى اقتراح لفظ آخر. لذلك استعمل برجسون "الدافع الحيوى" كصورة فنية ليس من أجل فن الأسلوب بل من أجل غياب أى مصطلح فلسفى للتعبير عن مضمونه. كما استعمل بتلر تعبير "قوة الحياة" واستعمل غيره المبدأ الحيوى[1]. فى حين توجد مصطلحات أخرى ملائمة مثل "الآلية" و"الغائية". وهناك صور مجدبة مثل استعمال شوبنهور تعبير "إرادة الحياة". فاللغة مسئولة إلى حد كبير عن نقص المصطلحات بالإضافة إلى الرؤية الجزئية إلى الواقع وتحويل الكل إلى أجزاء، واللامنقسم إلى منقسم، بسبب المعادات الاجتماعية وضرورات الحياة العملية. لذلك تتحول الفلسفة إلى عمل الهواة، ولا تبقى صنعة المحترفين. التفلسف هو خلق المشكلة وخلق الحل. الهاوى هو الذى يختار حلا بين الحلول الجاهزة فى حين أن الفيلسوف هو الذى يبدع حلا.

وفى خطاب إلى هارولد هوفدينج بمناسبة صدور كتاب "فلسفة برجسون" يمدح برجسون حياد المؤلف وقدرته على استعمال منهج لا يبتسر النصوص ولا

---

(١) قوة الحياة Life-Force. إرادة الحياة Vouloire-Vivre.

يسئ تأويلها. ومع ذلك، من الصعب دخول باحث أصيل فى فكر مفكر أصيل. إذ ما زالت صعوبة عند المؤلف فى فهم علاقة الوعى بالجسم عند برجسون، ومشكلة الله فى "التطور الخالق"، والتماثل بين الفلسفة والفن.

ويرد برجسون على سوء الفهم الأخير مبينا الفرق بين الفن والفلسفة. الفن يتعلق بالحى اعتمادا على الحس فى حين تتعلق الفلسفة بالمادة والروح على حد سواء اعتمادا على العقل والحدس بالرغم من أولوية الحدس. كما أن الحدس الفلسفى يذهب أبعد من الحدس الفنى، ويأخذ الحيوى قبل تناثره فى صور. فى حين يتعامل الفن مع هذه الصور. الحدس فى الفلسفة هو حدس الديمومة. أما الحيوى فى "التطور الخالق" فإنه موجه ضد الآلية فى علوم الحياة والتى لا تفسر كيف تتحول الحياة إلى تاريخ أى تتابع لا يتكرر. فكل لحظة هى لحظة فردية. حدس الديمومة إذن والآلية الشاملة نقيضان. بل ويستطيع حدس الديمومة أن يفند الآلية الشاملة على نحو تجريبى.

أما التمييز بين الغريزة والعقل والحدس فلا تنفى أن تكون الممارسة معرفة للشئ فى ذاته والواقع المطلق. مهمة العقل السيطرة على المادة غير المنظمة وهو قادر على معرفتها. وكذلك الغريزة قادرة على معرفة مكنونات الحياة. ومن ثم فالحدس قادر على معرفة الإنسان معرفة كاملة. ولا تصبح المعرفة العقلية أو الحدسية نسبية إلا إذا تم تطبيقها فى غير موضوعها. تطبق معرفة الحياة على المعرفة التصورية كما تفعل الآلية أو تطبيق معرفة المادة على الصور المستمدة من الحياة[1].

---

(١) هاولد هوفدينج Harold Höffding. EP., III, pp. 455-8.

كان هذا رد برجسون على كتاب هوفدينج فى هذا الوقت العصيب الـذى تمر به فرنسا دفاعا عن حقوق الإنسان والشعوب صغيرة أم كبيرة. وتشارك فى الحرب بعيدا عن روح الأنانية والطموح والمصلحة المادية، تحارب قضية الفكر الذى أخلصت له، وهو ما يكوّن عظمتها.

وفى رسالة إلى السيدة كارين ستيفن يمدح كتابها "سوء استعمال العقل، دراسة فى نقد برجسون للعقلانية"، وتمييزها بين المادة والواقعة، المادة قبل الإدراك والواقعة بعد أن تصبح حية فى الشعور(١).

وقد أضر التخصص بالعلم. وانزوى كل علم فى ميدانه. وحدثت أزمة فى كل علم. فى حين أن الرؤية الكلية للعلم هى القادرة على حماية كل علم من النظرة الضيقة لموضوعه ومنهجه، وهو ما يسمى الآن بالعلوم البينية(٢). يجعل التخصص العالم عبوسا، والعلم مجدبا. صحيح أن تقسيم العلوم شئ طبيعى حين كان العقل البشرى فى طفولته لا يطمح لمعرفة كل شئ. وكان هذا هو خطأ الفلسفة. كان العلم علم الأشياء الإنسانية والإلهية. ولما اتضح أن العالم أوسع من العقل، وأن الحياة قصيرة، والتعليم طويل، والحقيقة لا متناهية، قل الطموح. واكتفى بوضع اليد على حقيقة جزئية. فنشأت العلوم المتخصصة الكثيرة. لكل منها موضوعه ومنهجه. ثم بدأت أزمة العلوم بسبب هذه النظرة الضيقة. إذ تتكامل العلوم فى موضوعاتها ومناهجها. وزادت التجربة من تضييق مفهوم العلم. وتحول النظر إلى العمل.

---

(١) Karin Stephen: The misuse of mind. A study of Bergson's attack on Intellectualism, EP., III, p. 535.

(٢) التخصص La Specialité. خطاب بمناسبة توزيع جائزة مدرسة انجر فى ١٨٨٢/٨/٣. EP., I, pp. 10-6.

ويكتب برجسون مقدمة لمحاضرة القس هولار حول "الوقائع التى لا يستطيع العلم إداركها". فالعلم له منهجه الخاص بالوقائع، وله موضوعاته المحددة. فى حين أن الفلسفة لها منهجها التأملى الاستبطانى وموضوعاتها العامة. ومن ثم فإن محاولة إقامة فلسفة علمية، تربط بين الاثنين لا تلزم الفلسفة ولا العلم. العلم نسبى والفلسفة أكثر من نسبية. واليقين العلمى تجريبى، فى حين أن اليقين الفلسفى ظنى. موضوع العلم ما يقاس، وموضوع الفلسفة لا يقاس. الأول كمى، والثانى كيفى، طبقا لثنائيات برجسون الشهيرة. حدود العلم لحساب اطلاق الفلسفة، وربما إطلاق الفلسفة لحساب إطلاق الدين(١).

وبعد سماع برجسون لمحاضرة اينشتين فى الجمعية الفلسفية، استأنف نقاشا معه دونه من قبل فى "الديمومة والتزامن" حول نظرية النسبية العامة مدافعا عن الديمومة كتيار سيال لا ينقسم فى الحياة الباطنية. ولما كانت الحياة الباطنية أساس الادراكات الحسية، والادراكات الحسية تنصب على الأشياء، لتوهمنا أن الديمومة الداخلية على علاقة بالأشياء الخارجية. والزمان فردى شخصى وليس زمانا عاما كما هو الحال فى النظرية النسبية. النسبية تتعامل مع الزمان باعتباره تزامنية وليس ديمومة. التزامن يقتضى إدراكا حسيا لحظيا، ومشاركة الانتباه فيه دون تقسيمه. أما أينشتين فيميز بين زمن الفيلسوف وزمن الفيزيائى. الأول نفسى، والثانى موضوعى. الأول ذاتى، والثانى مستقل عن الأفراد، ويتعلق بالأشياء. ويؤيد بييرون برجسون ضد أينشتين(٢).

---

(١) مجلة "الإيمان والحياة" العدد ١٦ عام ١٩١١. EP., II, pp. 358-60. هولار Hollard.

(٢) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية عدد يوليو ١٩٢٢ جلسة ١٩٢٢/٤/٦، EP., III, pp. 497-503. بيرون Pieron.

**جـ- فلسفة الحياة.** ثم يظهر التيار الثالث، فلسفة الحياة عند المحدثين، علماء نفس وفلاسفة وشعراء مثل بيير جانيه، ومين دى بيران، وادوار لوروا، والفرد بينيه، وروسو، وفوييه، وجيو، وبتلر، وبولدوين[١].

فيعرض برجسون المصادر النفسية للاعتقاد بالعلّية[٢]. وهى بحوث مثل بحوث وليم جيمس عن الأسس النفسية للأفكار الميتافيزيقية. والمصدر الرئيسى للعلية هى الحاجة إلى ربط الادراكات البصرية من أجل خلق عادات بصرية. هناك إذن انطباعات حسية وميول حركية. ويؤصل نفس الموضوع عند الإسكندر الأفروديسى[٣].

ويعرض برجسون كتاب "تخطيط لمذهب علم نفس عقلى" لإميل لوباك. وهو لا يختلف عن علم النفس السيكوفيزيقى فى الموقف من التجربة. الأول الاستبعاد، والثانى الخلط[٤]. ويدخل فى نقاش مع مجموعة دراسات حول الظواهر النفسية[٥].

---

(١) بول جانيه (٢٧)، مين دى بران (٢١)، ادوارد لوروا (١٣)، الفرد بينيه (٩)، رافيسون (٨)، روسو، فوييه، جويو (٧)، بتلر (٦)، بولدوين (٥).

(٢) بحث مقدم إلى المؤتمر الدولى للفلسفة، باريس ١٩٠٠. EP., I, pp. 129-37.

(٣) تلخيص محاضرات برجسون على فكرة العلية عند الإسكندر الافروديسى عام ١٩٠٠. Ibid., p. 137.

(٤) تخطيط مذهب فى علم النفس العقلى لإميل لوباك، باريس، الكان ١٩٠٣. Ibid., p. 205-7. وأيضا فى محاضر أكاديمية العلوم الإنسانية، إميل لوباك E. Lobac. ١٩٠٣/١٢/١٩.

(٥) مجلة المعهد العام النفسى ١٩٠٣/١٢/٢٨. Ibid., pp. 209-12.

وقد شارك برجسون فى مناقشات "جماعة دراسة الظواهر النفسية" فى موضوع الدورات التنفسية أثناء التنويم المغناطيسى، محاولا فهم العلاقة بين الظاهرة النفسية والظواهر الجسمية المصاحبة[١].

يعرض برجسون كتاب جويو "تكوين فكرة الزمان" مع مقدمة لفريد فوييه بعدما عرض برجسون فى "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان". فقد ميز جويو بين الصورة السلبية والصورة الإيجابية للزمان. وفصل فيه بين أربعة عناصر: الاختلاف والتشابه والعدد والدرجة. ويركز برجسون على التمييز كالعادة بين المكان والزمان، وإزاحة الخلط بينهما فى المكان الزمانى أو الزمان المكانى. فالزمان هو الصياغة المجرد لتغيرات العالم[٢].

كما حلل برجسون كتاب "مبادئ الميتافيزيقا وعلم النفس" لبول جانيه وتأسيس علم النفس الوصفى أو الفلسفة على أسس نفسية كما هو الحال عند وليم جيمس وبرنتانو وهوسرل وبرجسون نفسه من أجل إنقاذ علم النفس من السيكوفيزيقا، وإنقاذ الفلسفة من التجريد، وتأكيد مسئولية الفلسفة. ويعدد برجسون المذاهب الفلسفية الممكنة من المادية إلى الظاهرية إلى النقد إلى وحدة الوجود إلى الروحانية. والروحانية تعترف بالإنسان المفكر[٣].

ودخل برجسون فى مناقشة مع بينيه حول "الروح والذاكرة" فى موضوع الإدراك الحسى الخارجى منذ ديكارت وليبنتز حتى علم النفس الحديث، وبيان

---

(١) مجموعة دراسة الظواهر النفسية، الدورات التنفسية أثناء التنويم المغناطيسى، نشرة معهد العام لعلم النفس ١٩٠٥. وقد أجريت المناقشات فى ١٩٠٤/١١/٢١. EP., pp. 225-8.

(٢) تحليل كتاب جويو "تكوين فكرة الزمان" مع مقدمة لألفريد فوييه A. Fouillée، باريس، فيلكس الكان Félix Alcan ١٩٩٠. EP., I, pp. 76-82.

(٣) تحليل "مبادئ الميتافيزيقا وعلم النفس" لبول جانييه Paul Janet. EP., I, pp. 98-128.

برجسون التمييز بين الحس الخارجى والحس الداخلى، بين الإدراك الحسى والانتباه الشعورى[1].

وبناء على طلب وليم جيمس سيرة ذاتية من برجسون رد عليه برجسون بكل تواضع بأن سيرته الذاتية لاشئ يسترعى الانتباه فيها موضوعيا. ويركز على أثر سبنسر عليه، وتوجهه نحو فلسفة العلوم، ثم بداية اهتمامه بمفهوم الزمان فى الميكانيكا والفيزيقا ثم تغييره تماما، واكتشاف أنه زمان لا يدوم. وفى هذا الكتب رسالته للدكتوراه "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان"[2].

وفى رسالة أخرى يعبر برجسون عن مدى سعادته لتوارد الخواطر واتفاق الأفكار بينه وبين وليم جيمس خاصة فى "مبادئ علم النفس" و"أنواع الخبرة الدينية" خاصة هذا الأخير الموجه ضد القطعية الدينية القديمة[3].

وفى رسالة أخرى بعدم استطاعة قراءة الزند أفستا لفشنر الذى ينصحه به وليم جيمس، يسلم برجسون بموافقته على "روح الأرض" والتسليم بموجودات متوسطة بين الله والإنسان[4].

---

(١) نشرة الجمعية الفلسفية المصرية، مارس ١٩٠٥. جلسة ١٩٠٤/١٢/٢٢. EP., pp. 229-33. بينيه Binet.

(٢) الرسالة بتاريخ ١٩٠٨/٥/٩. ونشرت فى مجلة العالمين فى ١٩٣٣/١٠/١٥، ويذكر برجسون العلامات الآتية فى حياته: ولد فى بارس فى ١٥٥٩، تلميذ فى مدرسة كوندرسيه ١٨٦٨-١٨٧٨، طالب فى مدرسة المعلمين العليا (وهى المؤسسة التى تؤهل فى فرنسا إلى التدرس إلى الجامعة) ١٨٧٨-١٨٨١، اجتاز امتحان مسابقة الفلسفة عام ١٨٨١، وحصل على الدكتوراه فى ١٨٨٩. عين مدرسا للفلسفة فى عديد من المدارس الثانوية فى الأقاليم خارج باريس ١٨٨١-١٨٩٨. أستاذ فى مدرسة المعلمين العليا ١٨٩٨-١٩٠٠. أستاذ فى الكوليج دى فرانس منذ ١٩٠٠، وعضوا بالمجمع العلمى منذ ١٩٠١. EP., II, pp. 294-519.

(٣) بتاريخ ١٩٠٨/٧/٢٣، مجلة العالمين ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., II, pp. 304-5.

(٤) بتاريخ ١٩٠٩/١/٢١، مجلة العالمين ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., II, pp. 310.

كما يعبر برجسون فى رسالة أخرى له عن موافقته على تمييز البرجماتية بين الواقع والحقيقة، فى حين أن الميل الطبيعى يميل إلى الاتجاه المعاكس بسبب عادات اللغة إلى الأفلاطونية. فالحقيقة هو ميلنا نحوها بمجموعة من الخيالات أو السراب حتى يُصبح الواقع والحقيقة من نفس النوع. لذلك يخطئ الكثيرون فى تأويل البرجماتية[١].

ويأخذ وليم جيمس حيزا كبيرا من المراسلات بينه وبين برجسون حول أهم كتاب لجيمس وهو "أنواع الخبرة الدينية" والتأكيد على أن الدين عاطفة، وليس عقلا كما هو الحال عند كانط، ولا مجتمعا كما هو الحال عند ليفى بريل ودوركايم. وفى خطاب آخر يحيل إلى نفس الكتاب، مقارنا إياه بكتاب "المادة والذاكرة" من خلال تحليل معنى "أكون أو لا أكون"، عبارة هاملت الشهيرة من أجل إثبات وحدة الأنا[٢].

وفى رسالة أخرى لوليم جيمس، يعبر برجسون عن اتفاقه إلى حد كبير معه باستثناء "التجريبية الجذرية" ودور اللاشعور الحاضر حضورا واضحا عند جيمس والأقل حضورا عند برجسون، خوفا من الوقوع فى التصور الماهوى أو الجوهرى للحياة، وعالم الشئ فى ذاته. برجسون أقرب إلى الحضور الدائم واللاشعور متداخل فيه وليس تحته[٣].

---

(١) بتاريخ ١٩٠٩/١٠/٢٨، مجلة العالمين ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., II, pp. 323-4.

(٢) خطاب إلى وليم جيمس، ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., I, pp. 192-3. خطاب إلى وليم جيمس ١٩٠٣/٣/٢٥. Ibid., pp. 197-8. ونشرت فى مجلة العالمين فى ١٩٣٣/١٠/١٥. فى مراسلات بيرى ووليم جيمس (رسائل ١٩٠٢-١٩١٠).

(٣) خطاب إلى وليم جيمس ١٩٠٥/٢/١٥. EP., II, pp. 235-6.

وفى رسالة أخرى له يعبر فيها عن رأيه فى مقالة "كيف تستطيع العقول أن تعرف شيئا واحدا؟". هناك التجربة الخالصة. وهى ليست ذاتية ولا موضوعية بل هى صورة تجمع بين الاثنين أو ما سماه جيمس امتلاك الشعور لهذه التجربة أو ما سماه هوسرل القصدية[١].

وفى رسالة أخرى يبدى برجسون إعجابه بكتاب "البرجماتية" والبرنامج الموضوع لفلسفة المستقبل خاصة الفصل الخاص بعنوان "البرجماتية والنزعة الإنسانية".

ويوافق على وصف جيمس بأنه بالنسبة للعقلانى الواقع سابق التجهيز وكامل إلى الأبد فى حين أنه بالنسبة للبرجماتى ما زال فى التكوين. فقد ابتعد كلاهما عن سحر الأفلاطونية فالحقيقة متغيرة ومتحركة. والواقع كذلك. والحقيقة مواكبة الواقع[٢].

ويبدى برجسون إعجابه بمقالتى وليم جميس "المعادل الأخلاقى للحرب" و"اقتراح للتصوف". الأول خاص بعدم ضرورة الحرب، والثانى خاص بالتجربة الصوفية، وأهمية القيم العقلية لحالات الفكر الشاذة، وكما عرض جيمس من قبل فى "أنواع الخبرة الدينية[٣].

وفى رسالة إلى مدير "المجلة الفلسفية" يوضح برجسون نفسه علاقته بجميس وارد ووليم جيمس[٤]. فقد نشرت المجلة مقالا لجاستون راجو عن أثر

---

(١) خطاب إلى وليم جيمس ١٩٠٥/٧/٢٠. Ibid., pp. 241-2.

(٢) الخطاب بتاريخ ١٩٠٧/٦/٢٧ ونشر فى مجلة العالمين ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., II, pp. 260-1.

(٣) الخطاب بتاريخ ١٩١٠/٣/٣١، مجلة العالمين ١٩٣٣/١٠/١٥. EP., pp. 335-6.

(٤) المجلة الفلسفية ١٩٠٥/٧/١٠. EP., II, pp. 238-40. جيمس وارد J. Ward.

وارد وجيمس على برجسون فى تصوره لتيار الشعور الداخلى فى "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان"، وأولوية العمل كما عرض جيمس نفسه فى محاضرة له عن برجسون فى الولايات المتحدة. ويدافع برجسون عن نفسه بأن "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" صدر عام ١٨٨٩، وبدأت كتابته فى ١٨٨٣-١٨٨٧. فى حين صدر كتاب وليم جيمس "مبادئ علم النفس" فى ١٨٩١. ومن ثم فإن فكرة برجسون عن "الديمومة" لا شأن لها بمفهوم جيمس عن "تيار الفكر". ولم يكن يعرف من مؤلفات وارد إلا دراساته الجادة عن الجهد والانفعال.

كما ينكر برجسون أى أثر له على وليم جيمس. فبعد أن قرأ جيمس "المادة والذاكرة"، أخطر برجسون بأنه يقوم بعدة أبحاث فى نفس الاتجاه. فلا وجد لأثر "المادة والذاكرة" على "مبادئ علم النفس". صحيح أن كليهما درس العلاقة بين الفلسفة وعلم النفس ولكن فى مسارين مختلفين فقد انتقل جيمس من علم النفس إلى الفلسفة، فى حين انتقل برجسون من الفلسفة إلى علم النفس.

وفى رد له على كاليه عن علاقة فلسفته بالفلسفة الأمريكية بوجه عام وفلسفة وليم جيمس بوجه خاص، يعترف بأن المسافة بين الفلسفتين قليلة للغاية. صحيح أن جيمس كان ديموقراطيا فى الميتافيزيقا إلى حد دفع التعددية نحو الفوضوية، وكذلك دفع برجسون نحو الوحدة إلى حد الملكية. وبرجسون لا يستنبط من أفلاطون، بالرغم من تقديره له. فكرة الديمومة من القدماء ولكن الخلود هو الذى نزل من السماء إلى هذه الديمومة لاعتناقها وإعادة خلقها. كما أن برجسون لا يقر بوجود حقيقة مطلقة منفصلة عن الظواهر كما يفعل القدماء بل إن الحقيقة المطلقة هو ما تشعر به باستمرار ونساهم فى خلقها. لا توجد

وحدة داخلية قبل الكثرة، بل كلاهما رؤية للواقع، والواقع ليس أحدهما بل كلاهما. وهى الكثرة الكيفية أو كثرة ذات نفاذ متبادل أى صيرورة.

صحيح أن جيمس قد وصل إلى فكرة "تيار الشعور" بطرق نفسية خالصة. وتوصل آخرون لها بنقد الفكرة الميتافيزيقية أو الفيزيائية للزمن. وبمقارنتها بالواقع وصل برجسون إلى فكرته عن الديمومة الواقعية. ويفسر هذا الاختلاف فى المصدر الاختلاف فى الوظيفة وفى التيار. تيار الفكر له قوة فى التفسير النفسى، فى حين أن الديمومة لها قوة على الشرح المعرفى أى الميتافيزيقى وبين المفهومين لا يوجد تعارض بل تكامل وتجانس مسبق(١).

وفى خطاب إلى فلوريس دلاتر بمناسبة كتابه "وليم جيمس برجسونيا"، يقول برجسون أنه عندما يرى الثابت فإن الإدراك أو التصور يجمد الواقع. فالسكون ليس إلا لحظة من حركة انتقال هو الواقع نفسه. هذه هى الديمومة، نقطة البداية، ونقطة النهاية، وهو ما أثار مشاكل فلسفية. وهو ما دعا إلى تأكيد عدم قابلية الواقع للقسمة باعتباره تواصلا فى الزمان. أما الزمان المتجانس فهو الذى تتعامل معه الفيزيقا والميكانيكا. لقد تكونت ملكات الإدراك والتصور من أجل ضرورات العمل التى تزيد من نسبة الثبات والحركة كواقع. ولا تتبدد الصعوبات الفلسفية إلا بعد تجاوز هذه العادات فى التفكير لاكتشاف أن الحركة هو المعطى الوحيد الواقعى. أما الثبات فهو وجهة نظر عليه.

وقد قارن وليم جيمس باقتدار بين الحياة النفسية بطير عصفور مميزا بين أماكن الطيران وأماكن الهبوط. هذا هو تيار الفكر. أما برجسون فإنه يتعامل

---

(١) جريدة الفلسفة ١٩١٥/١٠/٢٨، عن ريلاى Riley: البرجسونية فى أمريكا. EP., III, pp. 443-4.

فقط مع الديمومة الواقعية التى لا يوجد فيها إلا الطيران، ولا يوجد فيها الهبوط، ولا توجد أماكن ولا طيران ولا هبوط[1].

وفى مقدمة كتبها برجسون لمختارات من المراسلات بينه وبين وليم جيمس وترجمها فلوريس بلاتر يثنى على كتاب جيمس "مبادئ علم النفس". كما يثنى على أول من أسس معمل لعلم النفس التجريبى من أجل دراسة علم النفس المرضى. كما استطاع جيمس أن يتبنى وجهة نظر تعددية فى "أنواع الخبرة الدينية" من أجل إفساح المجال للبحوث الفلسفية المتنوعة، والبحث عن وحدتها كما هو الحال عند أفلاطون. أما البرجماتية فإنها تركز على أن الحقيقة للعمل، والنظر للفعل. هذه هى أصالة جيمس التى لا تبعد كثيرا عن أصالة برجسون[2].

وفى رسالة إلى جاك شيفاليه ردا على كتابه "وليم جيمس وبرجسون" يثنى برجسون فيها على دقة المقارنة ورسم الشخصيات مثل وليم جيمس المتواضع الكتوم الصامت عن عمد. والدين أو التجربة الصوفية تجمع بين الاثنين. وفيها يظهر مدى التقارب بين الروح الأمريكية والروح الفرنسية، ومدى جمعها بين المثالية والواقعية، بين الميتافيزيقيا والعلم. لذلك أنشئت جمعية الصداقة الفرنسية الأمريكية. لقد نشأت الولايات المتحدة نفسها كفعل نبيل، ليس فقط كواقعة استعمارية بل كحدث أخلاقى. لذلك نشأت كبرى الجامعات مثل هارفارد فى الساحل الشرقى! فجيمس يعبر عن الروح الأمريكى كما يعبر عن الروح الفرنسى!.

---

(١) Floris Delattre: Wiliam James Bergsonien, 1923. المجلة الإنجليزية الأمريكية فى يونيو ١٩٣٦. EP., III, pp. 560-1.

(٢) EP., III, pp. 583-6.

ونظرا لأهميته مين دى بيران كوسيط بين ديكارت وبرجسون، وهو فيلسوف الجهد والحياة الباطنية والمقاومة العضلية، كتب برجسون تقريرا عن "مذكرات عن مين دى بيران" بمناسبة جائزة بوردان[1]. وهو بحث بعنوان "مين دى بيران ومكانته فى الفلسفة الحديثة" ويشمل ورقتين. الأولى، مين دى بيران، كانطنا" (عبارة لاشيلييه) دراسة للأعمال المطبوعة والمخطوطة. وتدرس أخلاق الفيلسوف وكيف أنه انتقل من الأبيقورية إلى الرواقية، ومن الرواقية إلى المسيحية. يبدأ من حسية كانديلك، ومن خيرية الطبيعية عند روسو، ومؤكدا على أهمية الإرادة. فإذا قال كانط "يجب عليك إذن تقرر"، يقول مين دى بيران "لا تقرر ومع ذلك يجب عليك". تقوم فلسفته على سيكولوجية الجهد جامعا بين روسو وبستالوتزى. وفى مرحلة أخيرة فى فلسفته يغرق المؤلف فى الألوهية. أما عن مكانته فى الفلسفة الحديثة فإنه يستأنف فلسفات ديكارت وليبنتز وكانط وفشته. وله الفضل فى تركيزه على أن حياة الروح تبدأ بأول جهد مرغوب فيه[2].

وفى خطاب إلى فاليمت- مونتبران يرحب برجسون بأن يرأس جمعية أصدقاء مين دى بيران لأنه هو الذى شق طريق الميتافيزيقا[3].

ويأخذ برجسون الفرد بينيه محاورا رئيسيا له كعالم نفس فى كتابه "النفس والبدن". وقد كتب بنفس روح "المادة والذاكرة" لتجاوز السيكوفيزيقا، ومعطيا

---

(١) بتاريخ فبراير ١٩٣٦. Ibid., pp. 617-20.

(٢) كتب التقرير فى ديسمبر ١٩٠٥، جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الإنسانية والسياسية جلسة ١٩٠٥/١٠/٥. EP., II, pp. 243-50

(٣) الخطاب بتاريخ ١٩٢٧/٩/٣٠ ونشر فى مجلة مين دى بيران عدد ١٩٢٩/١.

الأولوية لنشاط الروح على الحساسية الفيزيقية[1]. وفى رسالة أخرى يؤكد أهمية علم النفس الفلسفى[2].

ويعرض برجسون لمفهوم "الحس المشترك" الشائع فى الفلسفة الأنجلوسكسونية. وظيفته معرفة الأشياء المادية من أجل تحقيق فائدة. هى ملكة تلقائية غريزية فى الطبيعة، يتميز بسرعة القرار، وتعدد الوسائل، ومرونة الشكل. ويثير لدى الآخرين الحسد. هى طاقة داخلية حاضرة فى كل وقت تستبعد الأفكار الجاهزة لصالح الأفكار التى مازالت تتكون من خلال الواقع بفضل الجهد المتصل. الحس المشترك إذن هو أحد أشكال الحدس. وهو قادر على حل معظم المشاكل الفلسفية العويصة، وهز المذاهب الفلسفية الشامخة. وهو أساس المناهج التربوية. هو أقرب إلى البراءة الأصلية والإحساس الطبيعى عند الطفل[3].

ويقدم برجسون تقريرا عن كتاب "أفكار عامة لعلم النفس" للوكيه يتجاوز علم النفس السيكوفيزيقى إلى علم النفس الخالص المستقل عن حواملة الفيزيقية[4]. وفى ملاحظاته حول تنظيم مؤتمرات الفلسفة بعد التقرير الذى قدمه

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٥/١١/٢٥. EP., III, pp. 251-2 الفرد بينيه Alfred Binet.

(٢) الكتاب السنوى لعلم النفس ١٩٠٨، EP., II, pp. 292-3.

(٣) الحس المشترك والدراسات الكلاسيكية، خطاب بمناسبة توزيع جائزة المسابقة العامة فى ٣٠ يوليو ١٨٩٥ فى القاعة الكبرى بالسربون EP., I, pp. 83-94.

(٤) جلسات وأعمال الأكاديمية الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٦/٥/٥. EP., pp. 255-6. لوكيه G.H. Luquet.

دلاكروا حول المؤتمر الدولى للفلسفة فى هيدلبرج يبين برجسون أهمية نقد التوازى السيكوفيزيقى من أجل تحرير الميتافيزيقا[1].

ويكتب برجسون تقريرا عن كتاب "علم النفس المجهول" لبوارك. ويتضمن دراسة تجريبية للظواهر النفسية[2]. ويصنفها إلى ظواهر تتعلق بالتنويم المغناطيسى، وأخرى تسمح بتدخل قوى مجهولة، وثالثة عن الظواهر الروحية التى تتضمن قوى روحية نفسية. وكلها ظواهر التراسل عن بعد وما يدخل ضمن شبه علم النفس مع نقد علم النفس التجريبى الخالص عند بيكون ومل. ويكتب تقريرا آخر عن كتاب "اللاشعور فى الحياة العقلية" لدلزهاوفرز الذى كتب من قبل "التركيب العقلى" من أجل مشكلة التعارض بين الاتجاهين الواقعى والاسمى. الأول يعترف بواقعيته، والثانى يعتبره مجرد اسم ملائم لمجموعة من الظواهر النفسية غير الشعورية[3]. وقد قدم كتاب "صفحات مختارة" لتارد أعدها أبناؤه. وترجع أهميته إلى الربط بين الاجتماع وعلم النفس، ووضع قواعد لعلم النفس الاجتماعى فى ظواهر التقليد والتجمع. فالحياة تسرى فى الظواهر الاجتماعية. يتخللها الدافع الحيوى. الظواهر الاجتماعية ليست أشياء كما يدعى دوركايم[4].

---

(١) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية يناير ١٩٠٩ (ص١١-١٢)، جلسة ١٩٠٨/١٠/٢٨. EP., II, pp. 306-7. هنرى دلاكروا Henri Delacriox.

(٢) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٨/٣/٢٨. EP., II, pp. 290-1. بواراك E. Boirac.

(٣) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية يناير ١٩١٠، جلسة ١٩٠٩/١١/٢٥. EP., II, pp. 325-31. دلزهاوفرر Dwelshauvérs.

(٤) سلسلة "الفلاسفة الكبار" باريس ميشو ١٩٠٩. تارد Tarde.

ويثنى برجسون على بعض الدراسات عنه أو القريبة منه مثل فلسفة ادوار لوروا. ففى رسالة من برجسون له بعد مقالين عن "الفلسفة الجديدة" وهى فلسفة برجسون وبالإضافة إلى المنهج استطاع الباحث أن يدرك "القصد والروح" ويدرك معنى الديمومة الواقعية[١]. كما يمدح سوريل وقدرته على الاقتباس منه بدقة والاعتماد على أفكاره فى تطوير فلسفته الأخلاقية والسياسية[٢].

وقد كتب برجسون عدة كلمات بمناسبة كتاب "البرجسونية" لتيبوديه. وهو مؤلف متعدد المواهب يجمع بين الأدب والتاريخ والسياسة وعلم النفس والأخلاق. أحب المؤلف بسمارك فى حين فضل برجسون كافور. ركز على أهمية المنهج فى مؤلفات برجسون[٣]. وساهم فى الكتابة فى المجلة الفرنسية الجديدة.

كما أرسل خطابا إلى الأب سيرتيلانج يوافق فيه على تمييز بين العقل والعقلانية. فبرجسون ليس ضد العقل بل ضد العقلانية كمذهب فى الميتافيزيقا. فالخطأ فى فهم برجسون راجع إلى فهم الخطأ فى منهجه وهو إقامة الميتافيزيقا على التجربة الخالصة. وهى التجربة الداخلية التى تتسرب إليها الميتافيزيقا على نحو لا شعورى[٤].

ومن الأقرباء منه رودولف إوكن من فلاسفة الحياة. فقد كتب برجسون مقدمة للترجمة الفرنسية لكتابه "معنى الحياة وقيمتها". فقد رفض الكتاب

---

(١) نشر المقالات فى مجلة العالمين ١ ، ١٥ فبراير ١٩٢ ونشر الخطاب فى مقدمة كتاب "الفلسفة"الجديدة". EP., II, p. 364. إدوارد لوروا E. Le Roy.

(٢) خطاب إلى جيلبرت مير فى كتابه فلسفة جورج سوريل ١٩١٢ (ص٦٥). Sorel.

(٣) عنوان الرسالة تحية إلى تيبوديه ١٩٣٦/٧/١. EP., III, pp. 621-6. E. Thibaudet: Le Bergsonisme (2 vols).

(٤) بتاريخ ١٩٣٦/١١/١٥. Sertillanges EP., III, p. 642.

تصورين للحياة. الأول يسقط عليها مثالا من خارجها يتعالى على الحياة مثل أفلاطون وكانط. وهو التيار الصاعد فى الوعى الأوربى منذ بداية العصور الحديثة. والثانى التيار المادى الذى يحول الحياة إلى أشياء والذى يمثله التيار التجريبى. الأول آلى، والثانى مادى. ومن ثم يخطئ التياران فى إدراك الواقع لأن الواقع ليس تاما ولا جاهزا بل فى حركة ونمو وتطور. ولا يمكن وضع الحياة فى قوالب وصياغات عقلية أو علمية. الحياة نشاط مستمر للروح[1].

وفى مقدمته لكتاب "بيولوجيا الأعصاب والهلوسة" لمورج يبين اتساع أفق الموضوع، وجمعه بين علوم عديدة، علم النفس والبيولوجيا والعلوم الطبية. الهلوسة واقعة نفسية لها أسسها البيولوجيا وتعبيرات لغوية. ليست الهلوسة إسقاطا خارجيا لصورة داخلية تتموضع شدتها. فهو تصور ساذج للحياة النفسية لأن الهلوسة ظاهرة أكثر تعقيدا[2].

ويكتب برجسون تقريرا عن كتاب "جنون الكتابة محاولة فى علم النفس المرضى" لأوسيب لوريه. وجنون الكتابة هو الرغبة العارمة فى الكتابة، واقع، وحصر، وانفعال للكلمة مع استبعاد أى نشاط آخر. وهى صورة أدبية للتعاطف. تقلد الذات وتكرر وتنسخ مع الوهم بأن كل ذلك يأتى من عنده. والمجتمع والإنسانية لا تستغنى عن كتاباته باسمه. وهو مثل كتابة الاسم على الكتب والأشجار والمقاعد...إلخ. ويتضمن كتابات خطابات لأشخاص لا يعرفها.

---

(١) تصدير لكتاب رودلف أوكن "معنى الحياة وقيمتها" (الترجمة الفرنسية) باريس، الكان ١٩١٢ (ص١-٤). R. Eucken.

(٢) EP., III, pp. 594-5. راؤول مورج R. Mourge.

والحقيقة أن الكتابة قد لا تكون جنونا بل التزاما بقضية، أو وجود عصر التدوين، والحفظ على تراث الأمة[١].

**٢- نهاية الوعى الأوربى.**

وفلسفة برجسون جزء من الفلسفة الأوربية، تاريخها وزمانها. لذلك تكثر تعبيرات "عصرنا" ، "زماننا"، "وقتنا"، "حضارتنا"، "منذ بعض الوقت"[٢]. "أيامنا هذه" ، "اليوم"، "منذ عدة سنوات". وقد أستوفى هذا الموضوع بعد ذلك فى "منبعا الأخلاق والدين" فى الملاحظات الختامية الآلية والتصوف.

لذلك ظهرت مصطلحات الخلط والتمييز، والخفض والرفع، والإصلاح كما هو الحال فى الظاهريات[٣]. كما تظهر ألفاظ مثل استبدال، قلب، لخلط نتيجة لرد الشئ إلى ما هو أقل منه. ويستعمل برجسون "الرد" بهذا المعنى[٤]. وقع فشنر فى الخلط بين الكم والكيف، المنبه والإحساس فى حين جعل برجسون الكيف يتجاوز الكم ولا يجاوره[٥]. والاختيار ضرورى بين الإحساس كصفة خالصة لا تنقسم أو الكم الذى يخضع للقياس وبالتالى للإنقسام. وقد امتلأت الخاتمة فى "رسالة فى المعطيات البديهية للوجدان" بمثل هذه المصطلحات مثل "استبعاد" ، "تصحيح" "تطهير"، "تخليص" ، تمييز، فصل، "تداخل"، "تشابك"، "اختلاط"

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٢١/٢/١٢. EP., III, Ossip-Lourie: La graphomanie, essai de Psychologie Morbide. pp. 490-1.

(٢) Dic., p. 38 .MM., pp. 7

(٣) تأويل الظاهريات: الباب الثانى: محاولة فى الفهم والتكوين والتفسير، الفصل الثانى: محاولة فى التكوين.

(٤) DIC., p. 5, p. 38.

(٥) Ibid., pp. 53-55.

السقوط، التناقض، القلب...إلخ[١]. وينقد برجسون المثالية والواقعية التى "ترد" المادة إلى التمثل. كما ينقد التوازى النفسى الجسمى[٢]. كما يتحدث برجسون عن النقل من أدنى إلى أعلى أى نقل التحول إلى تطور، والآلى إلى الحيوى، والمادى إلى الروحى[٣].

بل يضرب المثل أحيانا بخصائص الشعوب وعاداتهم فى التعبير فعند الإسكتلنديين تعبير الإدراك المحصر"[٤]. فى مقابل الإدراك المختلط.

ويرتبط بالفلسفة اليونانية خاصة الإيلين والسوفسطائيين الذين وقعوا فى خطأ الخلط بين الزمان والمكان فى حجج زينون الإيلى ضد الحركة[٥]. ويكاد لا لا يخلو عمل منهجى أو تطبيقى لبرجسون إلا يذكر فيه حجج زينون السوفسطائى كنموذج للخلط الذى يبدأ منه الحدس بتصحيحه.

**٢- ثقافات الشعوب الأوربية.**

**أ- الثقافة الفرنسية.** ومن أطول الكتابات مقال لاروس "فلسفة". وواضح دور فرنسا فى تطور الفلسفة الحديثة، ليس فقط كموضوع بل كمنهج منذ ديكارت حتى برجسون. تتسم بالوضوح والتمييز كما اشترط ديكارت كمعيار للصدق. وسار لوك وكوندياك فى نفس الطريق، طريق المثالية الحديثة، ابتداء من الكوجيتو الديكارتى[٦].

---

(١) Ibid., pp. 167-80.
(٢) MM., pp. 1-9.
(٣) EC., pp. 25. النقل Transposition.
(٤) Ibid., p. 54. الإدراك المحصل Perception acquise.
(٥) DIC., p. 74.
(٦) لاروس ١٩١٥. وكان فى الأصل مقالا مشتركا بين لوروا وبرجسون EP., II, pp. 413-36. روح الدقة L'esprit de finesse. بوفون (١٧٠٧-١٧٨٨)، بونيه (١٧٢٠-١٧٩٣). لامترى (١٧٠٩-١٧٥١) كابانيس (١٧٥٧-١٨٠٨). كوندياك (١٧١٥-١٧٨٠).

ثم نشأ تيار ثان مشتق من الأول عند بسكال مضيفا إلى الفلسفة "روح الدقة" فى الاستدلال الهندسى المتميز عن التأمل الصوفى. وطبعا الفلسفة الحديثة بطابعها كما فعل أفلاطون وأرسطو والأفلاطونية الحديثة والأرسطية فى العصور الوسطى.

ثم ظهر اسبينوزا والاسبينوزية تجمع بين ديكارت وأرسطو كذلك ليبنتز كمفكر رياضى يجمع بين ديكارت وارسطية والأفلاطونية المحدثة. وبينما كوّن اسبينوزا وليبنتز مذهبا إلا أن مالبرانش اكتفى به. إذن ديكارت وبسكال ومالبرانش هم أكبر ثلاثة فلاسفة فى القرن السابع عشر فى فرنسا الذين أسسوا الفلسفة الحديثة.

ثم نشأ تيار آخر عند لامارك وداروين اعتمادا على العلم الطبيعى الحيوى الذى ازدهر أيضا عند بوفون وبونيه. واستمر أيضا عند لافرى، ودى كابانيس. ودخل البعد النفسى أو النفس الفيزيقى فى الفلسفة وهو بعد أيدولوجى أى بناء الذهن من معطيات بسيطة. وظهر أيضا عند كوندياك. وخضع لوك إلى أثر ديكارت كإرهاصات لتين وأيدولوجية القرن الثامن عشر.

ثم نشأ تيار فلسفى اجتماعى عند مونتسيكو وتورجو وكوندرسيه. وانتشرت أفكار القانون والحكم والتقدم عند فلاسفة دائرة المعارف: دالميبر، ديدرو، لامترى، هلفسيوس، هولباخ. وهو تيار يحول النزعة الإنسانية إلى نزعة عقلية بجوار الصناعات الآلية.

وأكبر من أثر فى الفلسفة الفرنسية بعد ديكارت هو جان جاك روسو اعتمادا على العاطفة والحدس والمعرفة العميقة مثل بسكال دون ابنية ميتافيزيقية. كانت الرومانسية رد فعل طبيعى على الكانطية.

ثم ازدهرت العلوم الطبيعية وعلوم الحياة. وعبر عنها كلود برنارد وأوجست كومت. "المدخل إلى الطب التجريبى" بالنسبة لعلوم الحياة مثل "مقال فى المنهج" لديكارت بالنسبة للفلسفة، حوار الإنسان مع الطبيعة وليس مع المنطق، سابقا الاتجاه البرجماتى فى العلم أما "محاضرات فى الفلسفة" لأوجست كومت فهو من أحسن الأعمال الفلسفية المعاصرة مع تصنيف العلوم فى نسق تراتبى من الرياضيات إلى علم الاجتماع. وقانون الحالات الثلاث إرهاص لتورجو. ويشبه فيه سقراط فى إصلاح الفلسفة.

وشارك رينان كومت فى تأسيس "دين الإنسانية". واتضح الاتجاه العلمى أيضا عند تين فى دراسته للنشاط الإنسانى متأثرا باسبينوزا والضرورة الشاملة ومتأصلا فى أرسطو وأفلاطون.

ارتبطت الفلسفة بالبيولوجيا وعلم الاجتماع بفضل العبقرية الفرنسية. ثم انتشرت بعد ذلك فى إنجلترا واسكتلندا اعتمادا على ملاحظته الداخلية ودراسة الظواهر النفسية مثل "اللاشعور" بمنهج العيادة. وبرع فى ذلك مورو الثورى وشاركو وريبو وبيرجانيه وجورج دوما.

ثم ظهر أكبر ميتافيزيقى منذ ديكارت وهو مين دى بيران. وهو كانط فرنسا. فالروح الإنسانى قادر على معرفة الحقيقة. وكان قريبا من بسكال. ثم كان رافيسون قريبا منهما معا، بالإضافة إلى القرابة بين روح الفلسفة وروح الفن.

واقترن اسم رافيسون بلاشيلييه الذى أحيا الفلسفة فى الجامعات برسالته "أساس الاستقرار". وكان رافسيون قريبا من أوجست كومت. ومثله بوترو فى رسالته "حدوث قوانين الطبيعية" ومحاضرته الشهيرة حول "فكرة قانون

الطبيعة". ثم أسس هنرى بوانكريه وهو رياضى كبير بعض الأفكار العلمية. ويشبهه ميلو. وصب ذلك كله فى فلسفة ادوار لوروا فى نقده للعلوم بناء على ذوق فلسفى رفيع وإحساس بالواقع وبالأخلاق والدين.

وأقام لوى ليار فلسفته على الميتافيزيقا والعلم. وهو ما قام به أيضا فوييه عالم النفس والاجتماع ونظريته فى الأفكار- القوة. وهى نوع من العقلانية الواسعة. وهو مثل فيتشه وجويو[1].

وفى تيار مين دى بيران سار ريونوفييه وكورنو. ورينوفييه مؤسس الكانطية الجديدة فى فرنسا ولكنه وقع فى الدجماطيقية الميتافيزيقية، مؤكدا استقلال الشخصية الإنسانية. ويضم الحرية إلى العالم. ويقترب من العلوم الوضعية. ثم أسس كورنو نوعا جديدا من النقد لصورة المعرفة ومضمونها فى آن واحد.

ويحيل برجسون إلى كتابة "التطور الخالق" باعتباره إضافة إلى هذا التيار الذى يؤسس الميتافيزيقا على التجربة، وتطوير مشكلة الحدس على مستوى الشعور كتكوين نظرية عامة يمكن تطبيقها فى عدة محالات. وعلى هذا النحو تكون للفلسفة نفس الدقة التى للعلم، وتتقدم مثله[2].

وبعد عرض تطور الفلسفة الفرنسية تاريخيا منذ القرن السابع عشر فى القرن العشرين، من ديكارت حتى برجسون، يعرض برجسون على نحو بنيوى،

---

(١) مورو التورى Moreau de Tours. شاركو (١٨٢٥-١٨٩٣)، ريبو (١٨٣٩-١٩١٦)، ميلو Milaud (١٨٥٨-١٩١٨)، لوى ليار (١٨٤٦-١٩١٧)، فوييه (١٨٣٨-١٩١٢).

(٢) Ibid., pp. 413-31.

خصائص الفكر الفرنسى، من التتابع الزمانى إلى المعية الزمانية[1]. ويحددها فى ثلاث:

أولا البساطة والوضوح بعيدا عن الإيغالات والتعقيدات الميتافيزيقية والمذاهب الشامخة التى عرف بها الفكر الفلسفى فى القرن التاسع عشر. وهو واضح عند ديكارت وبسكال وروسو. وقد انعكس ذلك فى الأسلوب الأدبى الشاعرى.

ثانيا، ارتبطت الفلسفة الفرنسية دائما بالعلم الوضعى. لذلك كان الفلاسفة علماء، والعلماء فلاسفة. وقد ظهر ذلك أيضا فى ألمانيا على نحو عرضى. كان ليبنتز عالما رياضيا كبيرا. وكان ديكارت أيضا رياضيا. وربما انعكست الهندسة على ميتافيزيقاه أو ميتافيزيقاه على الهندسة. وكان بسكال عالم رياضة وفيزياء. وكان آخرون بيولوجيين وأطباء مثل: بونيه، كابانيه، دالمبير، لامترى. وقد وصل كومت وكورنو وريندوفييه من الرياضة إلى الفلسفة. وكان بوانكاريه رياضيا عبقريا. وكان كلودبرنار الذى أعطى الفلسفة أساسها التجريبى، والتجربة أساسها الفلسفى فزيولوجيا كبيرا. وقد ظهر ذلك أيضا عند رواد الفكر الفرنسى مثل مين دى بيران.

ثالثا، ارتبطت الفلسفة الفرنسية بعلم النفس والملاحظة الداخلية والاسبتطان. وهو ما لا يوجد فى الفلسفة الألمانية باستثناء شوبنهور. ويتضح ذلك عند ديكارت وبسكال ومالبرانش. كما ظهر عند فلاسفة أقل ذكرا مثل مورو التورى وعلماء نفس مثل شاركو وريبو. الفلسفة إذن على حافة الملاحظة

---

(١) التتابع الزمانى Diachronisme، المعية الزمانية synchronisme. وقد قام عثمان أمين بنفس الشئ وبنفس الأفكار فى مقاله الصغير "خصائص الفكر الفرنسى".

الداخلية والعالم الخارجى، بعيدا عن الدجماطيقية والمذاهب الشـامخة الألمانيـة عند كانط وهيجل. لذلك قال بسكال أن "روح الهندسة" لا تكفى ولا تغنـى عـن "روح الدقة" وإلا أصبحت الفلسفة لعبة الجدليين كما كانت فى العصر الوسيط.

الحاجة إلى التفلسف عامة. إنما تفترق طرقها ومناهجهـا بـين التجريـد والعيانية. وبهذا المعنى أصبحت الفلسفة أكثر نسبة هو روح الفلسفة.

وبالإضافة إلى "الفلسفة الفرنسية" هناك "العلم الفرنسى". فقد قدم لـه عـن "العلم الفرنسى" فى كتاب جماعى نشر برعاية "وزارة التعليم العام، مـن ثلاثـة وثلاثين مقالا عن العلوم الفرنسية بمناسبة معرض سان فرنسيسكو. وهو فى حد ذاته مكسب كبير فى هذه الظروف الصعبة، ظروف الحرب، التـى تمـر بهـا فرنسا. وهى مقالات جافة تعرض أكثر مما تحلل، وتنقل أكثـر ممـا تبـدع. غرضها بيان مساهمة فرنسا فى العلوم، بموضوعات ومناهج، وما تتسم به هذه العلوم من تواضع وكرم. فإذا كان هذا هو ما فى فرنسا وحاضرها فهو أيضـا مستقبلها[1].

وقد كتب برجسون تصديرا لكتاب "الفلسفة الفرنسية الحديثة، دراسة فـى تطورها منذ كومت لألكساندر جان. وهـو يقـدم الفلسـفة الفرنسـية للشـعب الإنجليزى كما فعل بارودى للجمهور الفرنسى. والبداية بكومت "تستبعد مين دى

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسـة ١٩١٦/١٠/٢. EP., III, pp. 453-4.

بيران السابق عليه. أهمية الكتاب، بالرغم من تعقيده، أنه يغطى مجالات العلم والحرية والتقدم والأخلاق والدين مع روح الرشاقة[1].

وفى تقرير للأكاديمية الفرنسية من وجهة نظر أحد أعضائها وهو برجسون، من نيويورك، يبين برجسون مآثرها وأهميتها للأمريكيين المستمعين له. فالمتحدث فرنسى والسامع أمريكى، والمدينة نيويورك. نشأت فى نفس الفترة التى كتب فيها ديكارت مقال فى المنهج ١٦٣٧ ومن أعمالها إعداد قاموس ليس فقط للغة بل للآداب "والثقافة" مثل إنسكلوبيديا لاروس. والأدب ليس فقط الأدب الجميل بل ما يكتشف عن مسار الأمة فى التاريخ. وقد أسر ولسون رئيس الولايات المتحدة لبرجسون فى لقاء معه" أن الكلام لا يُعتد به إذا لم يقرن بالعمل. وهو ما أعاد برجسون التعبير عنه بقوله "يحب العمل كرجل فكر والتفكير كرجل عمل". ولا يعبر ذلك عن مذهبية فرنسا بل أيضا عن عبقريتها. فالأدب الفرنسى حتى فى أعماله الخيالية ليس أدب حلم إلا فيما ندر بل أدب فى صلته بالوقائع كما هو الحال عند بلزاك[2].

وفى رسالة إلى هالفى يعبر برجسون عن ذكرياته مع شاعر فرنسا العظيم شارل بيجى. هو النسيج الذى يصنع منه الله الأبطال والقديسين. وهى عظمة فرنسا التى انجبت جان دارك والجنرال جوفر. وصوت أمريكا يصدح فى أذنه لم العجب؟ إنه بيجى. تحية إلى بيجى وتحية إلى فرنسا[3].

---

(١) Alexandre Gunn: Modern French Philosophy, a study of the development since Comte" EP., III, pp. 536-7. روح الرشاقة Esprit de Souplesse.

(٢) ثلاثة قرون الأكاديمية الفرنسية (١٦٣٥-١٩٣٥). EP., III, pp. 606-15. موهبة Talent، عبقرية Génie.

(٣) جريدة الزمان ١٩٣٩/١/٢٥. EP., III, pp. 651-2.

ب- **الثقافتان الأنجلوسكسونية والجرمانية.** وكان برجسون فى حوار مع الثقافة الأنجلوسكسونية والجرمانية. يقرؤها من مصادرها الرئيسية، الإنجليزية والألمانية. ويشير إلى الفلسفة الإنجليزية التى حاولت جاهدة إرجاع علاقات التمدد إلى علاقات أقل تعقيدا لتوالى الديمومة[١]. وخاصية المثالية الإنجليزية اعتبار الامتداد صفة للملموسات[٢]. ومن ثم لا يكون الإله إلا خارج العالم. كتب تقريراً عن كتاب "محاولة فى علم النفس فى إنجلترا المعاصرة، أزمات "الباردو"[٣]. وهو كتاب فى علم النفس الاجتماعى وليس فى علم النفس العقلى. ويبدأ بفكرة أن الشعوب أو الأفراد ليس لهم خصائص ثابتة. وهى محاولة لتحديد خصائص الشعوب وخصائصها كما فعل الفرد فوييه، وحدد الشعراء والأدباء كما قال الشاعر أوستين عن إنجلترا "من يناضل من أجل إنجلترا يناضل من أجل الله. ومن يموت من أجل إنجلترا ينام بجوار الله". وقد سادت بريطانيا الليبرالية السياسية. وهى مجموعة من الأفكار الوافدة من فرنسا جسدها ستيورات مل وغيره. وهناك أيضا المثالية الأدبية عند ديكنز وراسكين وكارلايل.

وكتب تقريرا ثانيا، عن القسم الثانى من الكتاب "الأزمات السياسية، الحماية والجذرية". أيضا خصائص الشخصية البريطانية خاصة فى الاقتصاد. وقد تنازعه تياران: الأول الحماية أى تدخل الدولة فى شئون الاقتصاد نظراً لاتساع الإمبراطورية ووضع المستعمرات. والثانى الجذرية وهى الحركات

---

(١) MM., p. 239.

(٢) Ibid., p. 180.

(٣) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٦/٢/١٠. EP., II, pp. 253-419.

العمالية المنادية بالحقوق مع الواجبات. وواضح الاهتمامات الاقتصادية والسياسية لبرجسون[1].

ويشهد برجسون على إنجلترا وينادى بتوحيد البريطانيين والفرنسيين والتكاتف على الأخلاق. فعند أرسطو تقوم الصداقة المتينة على الاحترام المتبادل وجماعة الفضيلة. فكلا الشعبين يحترمان الكرامة الإنسانية وحب الحرية. هناك تشابه فى الخصائص الروحية بينهما. تحية إلى الحكام النبلاء للشعب البريطانى النبيل[2].

بالإضافة إلى نقد كانط للفكر المذهبى ممثلا فى هيجل، وللميتافيزيقا المجردة عند ليبنتز والإلزام الخلقى عند كانط إلا أنه أيضا ينقد الشخصية الألمانية وطبيعتها الحربية وأحيانا العنصرية فى تقريره عن كتاب "العقلية الألمانية والحرب" لبول جولتييه. فقد عاش برجسون معظم حياته بين حربين، الأولى ١٩١٤-١٩١٨ والثانية ١٩٤٠-١٩٤٥. وكان المعتدى فيهما معا ألمانيا والمعتدى عليه دائما فرنسا تحت شعار "ألمانيا فوق الجميع" والعنصرية الألمانية التى تمثلت أخيرا فى النازية تحت أثر الفكر العنصرى الألمانى والفرنسى خاصة عند جوبينو. وهى عادة القرن التاسع عشر فى التعميمات على الشخصيات الوطنية مثل: الشخصية الألمانية، الروح الألمانى، المصير الألمانى، الطموح الألمانى، الرسالة الألمانية، التصور الألمانى، القسوة الألمانية. ويمكن نعت كل شئ بصفة ألمانى مثل الموسيقى، والفن، والشعر، والفلسفة...إلخ. وبروسيا قلب ألمانيا. فإذا قال فردريك الأكبر "أنا أخدم" فإن فردريك غليوم

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩٠٧/٩/٢٩. Ibid., pp. 262-3.

(٢) بتاريخ ١٩٣٨/٧/١٩ بعنوان "تحية إلى إنجلترا" بجريدة الفيجارو EP., III, p. 650.

الأول يقول "أنا وزير الحرب، أنا وزير المالية لملك بروسيا". هناك إذن ملك بروسيا مثالى وخالد مثل بروسيا. يتجسد فى كل فرد من عائلة هوهنزلرن، وكأنه تجربة صوفية. بل يمتد الحديث إلى الجنس الألمانى، العنصر الألمانى، العرق الألمانى[1].الألمانى هو كل إنسان طويل القامة، أشقر الشعر، معقوف الأنف، أبيض الوجه كما هو الحال فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية. ويتطور الأمر أكثر فى "البانجرمانية" عندما تتحول الصفة إلى وحدة الشعب أو القومية الألمانية أى تأليه القوة، الروح الذى يسرى فى العالم.

وفى خطاب له أثناء الحرب العالمية الأولى عن "دلالة الحرب" يحمل حملة شعواء على ألمانيا أى بروسيا وجرائمها بشنها الحرب على فرنسا. ألمانيا هى وطن الفن والشعر والميتافيزيقا ثم تحولت إلى الآلية والزيف والاصطناع بفضل عائلة هوهنزولرن. وانضمت النمسا لمشاركتها فى القومية الجرمانية إلى ألمانيا عامة وبروسيا خاصة فى عقد مع الشيطان كما عرض جوته فى فاوست، ميفيستوفيليس هو بسمارك لقضم الألزاس واللورين من فرنسا، تحقيقا لإرادة الله فى الأرض. وفى نفس الوقت تدعى ألمانيا، إنجاب كانط وهيجل وجاكوبى وشوبنهور. وجعلوا من المفكر جوبينو العنصرى فيلسوفا مشهورا. تمثل ألمانيا "البربرية العلمية" و"البربرية المذهبية". وتستمر فى العسكرية والصناعة العسكرية والآلية العسكرية من قاع الأخلاق المادية ويقتبس كثيرا من النصوص والنداءات من أجل تكوين جبهة للانقاذ الوطنى و"الجمعية الفرنسية لمساعدة جرحى الحرب" و"اتحاد نساء فرنسا" و"رابطة السيدات الفرنسيات" و"الصليب

---

(١) جلسات وأعمال أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، جلسة ١٩١٦/٧/١.

الأحمر الفرنسى" لجمع التبرعات للحرب دفاعا عن الحق والعدل من أجل فرنسا الإنسانية[١].

وفى مقال صغير عن "القوة التى تستعمل والقوة التى لا تستعمل" يُهاجم برجسون ألمانيا العسكرية[٢].

**حـ- الثقافات الأسبانية والسويدية والبولندية.** وبرجسون مجامل أشد المجالة للثقافات الأسبانية والسويدية والبولندية. ففى خطاب له فى مقر الطلبة (الأسبان) فى مدريد يمدح برجسون أسبانيا، ويثنى على الطلبة الأسبان، ويبين أوجه التشابه بين فرنسا وأسبانيا فكرا وأدبا وفنا وحضارة. والصداقة هى التى تقوم على الفضيلة كما لاحظ أرسطو. وفى كلا البلدين سمو خلقى واتجاه نحو الكمال كما اتضح ذلك عند سرفانتيس[٣].

وفى خطاب الشكر بمناسبة حصوله على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٢٧ يذكر مآثر نوبل وفضله على السلام، وفضل الأكاديمية السويدية وتميزها بالمثالية والعالمية، وارتباط شعب السويد بالمسائل الخلقية. وهو أقرب إلى المجاملة منه إلى تحليل دقيق وواف لخصائص الشعوب[٤].

ويظهر المزاج البولندى عند برجسون. فهو من أصول بولندية. وأبوه موسيقى. لذلك كان تحليل الموسيقى عنده نموذجا فريدا لتحليل الظواهر النفسية ولإثبات الديمومة.

---

(١) Bergson: La Signification de la gnerre, pp. 7-29. هوهنزولرن Hohenzollern.

(٢) بتاريخ ١٩١٤/١١/٤. Ibid., pp. 39-42.

(٣) ألقى فى مدريد ١٩١٦/٥/١. EP., III, pp. 444-8.

(٤) جوائز نوبل لعام ١٩٢٨، EP., III, pp. 690-1.

وفى خطاب له إلى الأب فلوريان زنانيكى بمناسبة ترجمته كتاب برجسون "التطور الخالق" يثنى على معرفة المترجم الجيدة بتاريخ الفلسفة وبمساعدة عالم بيولوجيا ورياضى ومؤرخى للفلسفة كما حدث أيضا فى الترجمة الإنجليزية، والترجمة الألمانية فى الطريق. وأهم شئ هو إيصال المترجم الرسالة إلى القراء، وضرورة تجاوز التصورات والأفكار المجردة والتى لا يمكن التعبير عنها إلا بالصور. فالصورة ليست للزينة والتجميل ولكنها الوسيلة الوحيدة القادرة على التعبير عن الفكر[1].

د- **العبقرية الأمريكية**. وقدم برجسون كتاب "العبقرية الأمريكية، مفكرون ورجال العمل" لريلى مبديا إعجابه بالعبقرية الأمريكية ومدى اتفاقها مع العبقرية الفرنسية. مثال ذلك لافاييت، ويتمان لنكولن، روزفلت، جيمس. هناك شخصية أو عقلية أمريكية تكونت بسرعة على عكس شخصيات الشعوب الأخرى التى تكونت عبر تاريخ طويل. تجمع بين الوطنية والإحساس بالرسالة وآدائها، والديموقراطية والحرية والتفاؤل والتعاطف مع الطبيعة. وإذا كانت الصداقات عابرة إلا واحدة كما يقول أرسطو فهى الصداقة الفرنسية الأمريكية[2]. ولم يعش برجسون ليرى أمريكا الاستعمارية الحالية، وسيطرة اليمين المحافظ عليها، وتخليها عن رسالة الآباء المؤسسين فى الحرية والديمقراطية والمساواة بين الشعوب وكما تخلت فرنسا عن مبادئ الثورة الفرنسية، وكما هدمت أوربا مثل التنوير فى التفكيكية وما بعد الحداثة.

---

(١) نشر الترجمة فى فارسوفيا فى ١٩١٣. EP., III, p. 654. زنانيككى F. Znaniecki.
(٢) صدر الكتاب فى باريس، الكان ١٩٢١. ريلي Riley.

الثانية. الموضوع غير المعلن هو الحرب، والمعلن التقارب الجامعى بين طلاب أمريكا وطلاب فرنسا، وأهمية روح الاختراع فى التعليم وليس بناء المذاهب الفلسفية[1].

هـ- **غياب الحضارات الشرقية**. وتغيب الحضارات غير الغربية مثل الحضارات الشرقية ومنها العربية الإسلامية باستثناء ما ذُكر فى الفصل الثالث فى "منبعا الأخلاق والدين" عن "الدين الحركى". ومع ذلك فى تقريره عن كتاب "المغرب، مدرسة للطاقة" لألفرد تارد. يرى أن المغرب ظاهرة تستدعى الانتباه للفيلسوف والفنان ورجل السياسة. المغرب حصيلة التقاء ثقافتين. الأولى ثابتة منذ عدة قرون فى خمول والأخرى مبدعة ومولدة للطاقة وهو التقابل بين المغرب القديم والمغرب الحديث، وهو المغرب الفرنسى. وفضل فرنسا على تحديث المغرب هو موضوع الكتاب[2].

واللامبالاة أو الفتور أو الكسل أو الخمول أو البلادة أو التراخى الإسلامى فى حاجة إلى توضيح. ليس رفض العمل بل السلبية التامة تجاه التغير. لا يعتقد أهل البلد بأن التغير ممكن. ومن ثم لا يحبذ تدعيم الجهد. طاقته محدودة، تستجيب فقط لضروريات اللحظة. فى حين أن الحضارة الغربية تعتقد بفاعلية الجهد. هذا التقابل هو مفتاح الاستعمار. وهذا هو سبب حضور فرنسا فى المغرب. لقد وضعتها فرنسا تحت الحماية. وأعطتها حكومة مستقرة، وإدارة دائمة. وأشاعت فيها روح التنظيم. وخلقت فيه حاجات جديدة وأساليب إشباعها.

---

(١) وألقى الخطاب فى ١٩١٩/٣/٢ فى "ندوة المكتبة" ونشر فى مجلة الحياة الجاهلية، مايو ١٩١٩. Ibid., III, pp. 485-8.

(٢) Alfred Trade: Le Moroc, école d'energie. EP., III, pp. 538-9. أهل البلد L'indigéne. البلادة، اللامبالاة Indolence

وهذا هو سبب وجود الدافع الحيوى لاستعمار فرنسا، اندلاع الطاقة الكامنة فى العرق الفرنسى وحاجة للفعل وتعليم العمل. فالمغرب خاصة والمستعمرات عامة تحمى الذوق الذى أعطته فرنسا. وهنا تأتى أهمية المقارنة بين المغرب القديم والمغرب الجديد، ودور فرنسا فى هذا التحول. وينتهى الكتاب بتحليل الفن المغربى ودلالته النفسية، علم نفس نافذ ودقيق. وهذا مجرد فضل أول فى فلسفة الاستعمار. وعرض برجسون لتارد دون نقد تجعل العرض تأليفا. وهنا يبدو برجسون من أنصار حتمية الاستعمار الغربى، وتصور المدرسة الاجتماعية للثقافات غير الأوربية، وما سمى "العقلية البدائية". وهو ما سماه كلود ليفى شتراوس بعد ذلك "الفكر البرى" أو "الفكر المتوحش".